سأطور
OSTOUR

التسلم Received
2025-05-18

التعديل Revised
2025-08-25

القبول Accepted
2026-03-03

المُعرّف الرقمي: DOI: https://doi.org/10.31430/XCBY6073

فارس الأتاسي | Fares Atasi*

ثورة هادئة: تعليم البنات في سورية أواخر العهد العثماني (1880-1918)

A Quiet Revolution: Girls' Education in Late Ottoman Syria (1880-1918)

شهدت سورية العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر نشاطًا متزايدًا في مجال تعليم البنات. وكان هذه النشاط مدفوعًا بالإصلاحات الرسمية والمبادرات الأهلية التي سعت لتوسيع نطاق التعليم من دون الاعتماد على التمويل الحكومي المباشر. وقد أسهمت هذه الإصلاحات والمبادرات في تعلّم رُبع البنات المسلمات في المدارس الحديثة. وجاء ذلك، في جزء منه، بوصفه ردّة فعلٍ على الحداثة الأوروبية ومحاولة لـ "عَثْمَنة" هذه الحداثة[1]، وذلك بعد تأسيس البعثات التبشيرية أولى مدارس البنات في ولايتي سورية وحلب. على أنّ قضية تعليم البنات ستأخذ طابعًا سياسيًا مع وصول حزب الاتحاد والترقي للسلطة، وهو ما سيؤدّي إلى عزوف كبير عن المؤسسات الرسمية. لطالما ركز الباحثون على دراسة تعليم الذكور، لذلك تسعى هذه الدراسة، استنادًا إلى وثائق الأرشيف العثماني والحوليّات الرسمية والمصادر المحلّية، للإضاءة على تعليم البنات في أواخر العهد العثماني، ومحاولة فهم التغيّرات الاجتماعية وتأثير العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية في مسار التعليم.

كلمات مفتاحية: سورية، الدولة العثمانية، تعليم البنات، المدارس التبشيرية.

In the late 19th century, girls' education in Ottoman Syria gained significant momentum. Driven by state reforms and community-led initiatives, it expanded access to schooling even in the absence of direct state funding. By this time, nearly a quarter of Muslim girls had received a modern school education. Partly in response to European modernity, these efforts represented an attempt to "Ottomanize" its forms, particularly following the establishment of missionary girls' schools in the two Vilayets of Damascus and Aleppo. With the rise of the Committee of Union and Progress to power, education became increasingly politicized, contributing to a public turn away from state institutions. Yet the history of girls' education in Syria during the late Ottoman period remains understudied and overshadowed by scholarship on male education. Addressing this gap, this article draws on Ottoman archives, state annals, and local sources to examine the religious, political, and socio-economic forces that shaped this field.

Keywords: Syria, Ottoman Empire, Girls' Education, Missionary Schools.

* مهندس معماري، وباحث وكاتب في التاريخ السوري العثماني والمعاصر.

An Architect, Researcher and Author Specialising in Ottoman and Modern Syrian History.

Email: fares.atasi031@gmail.com

[1] العثمنة Ottomanization: مشروع سياسي انخرطت فيه الدولة العثمانية بعد التنظيمات، على غرار ما كانت تفعله الدول الأوروبية المعاصرة، من أجل إيجاد رعايا منضبطين وموالين للدولة، عبر منحهم تعريفًا للهوية والمواطنة وربطهم بالمركز من خلال الأيديولوجيا والقانون. ينظر:

Selim Deringil, *The Well-Protected Domains: Ideology and the Legitimation of Power in the Ottoman Empire,* 1876-1909 (London: I.B. Tauris, 1998), pp. 44-46, 94.

مقدمة

شهدت البلاد السورية[1] في القرن التاسع عشر عدّة أحداث أثرّت في تركيبة المنطقة اجتماعيًّا واقتصاديًّا وإداريًّا، بدءًا من الحملة الفرنسية على مصر والشام، التي انتهت عام 1801، ثم الحملة المصرية بقيادة إبراهيم باشا (1789-1848) لاحتلال سورية (1831-1840)، التي أعقبها صدور فرمان "التنظيمات الخيرية" (1839)، ثم أحداث عام 1860 التي أدّت إلى إنشاء متصرفية جبل لبنان، فافتتاح مجلس المبعوثان العثماني عام 1877، الذي شكّل أول تجربة برلمانية شاملة في البلاد العثمانية، وأخيرًا إنشاء ولاية بيروت الساحلية عام 1888.

وقد أدى تداخل الأنظمة والآليات القديمة مع الآليات والهياكل الجديدة في جهاز الإدارة المصري، ثم العثماني في سورية، إلى تغييرات واسعة في مجتمعات المنطقة، وبروز مفاهيم لم تشهدها البلاد سابقًا؛ مثل المساواة، والتصويت، والانتخاب. وأتاحت هذه التغييرات لمجتمعات المنطقة هامشًا جديدًا، على الرغم من ضيقه ومحدوديّته، متمثّلًا في النشاط والمشاركة في الحياة العامة ومحاولة التأثير فيها، بعد أن كان ذلك مقتصرًا في أغلب الأحيان على فئة محدودة من "الأعيان".

ولعلّ المجال التعليمي من أبرز المجالات التي يمكن من خلالها دراسة النشاط الأهلي في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، نظرًا إلى أنّ هامش التأثير والمشاركة الأهلية فيه أوسع من غيره من المجالات، إضافةً إلى كونه مثالًا مناسبًا لمراقبة العلاقة المتبادلة بين الدولة (المركزية والمحلّية) والمجتمع (الأفراد والمجموعات). أما تعليم البنات، فهو الموضوع الأشدّ حساسية؛ إذ لا يرتبط بالعلاقة بين الدولة والمجتمع فحسب، بل إنه يرتبط بمكوّنات المجتمع نفسه وتوجّهاته المختلفة أيضًا.

ومع الاهتمام مؤخرًا بدراسة حركات المجتمع الأهلي ودور المرأة فيه في المنطقة العربية، كان من الضروري إعادة استكشاف تاريخ هذا الدور من خلال دراسة تاريخ تعليمها، بوصفه أحد أهم مجالات حضورها الاجتماعي خلال القرن العشرين وما يزيد عليه قليلًا.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من كونها من الدراسات القليلة التي تركّز على نشأة تعليم البنات في سورية وتطوّره خلال الفترة العثمانية، وهو موضوع لم يُعالج في الدراسات السابقة إلا على نحو جزئي أو عابر. فقد اهتمّ نزار أباظة[2] بالكتابة عن مؤسسات تعليم البنات في القرن العشرين، متجاوزًا المؤسسات الرسمية القديمة، في حين تطرّق أحمد حلمي العلّاف[3] إلى الموضوع في بضعة أسطر. وتناولت عائشة دباغ[4] تاريخ إنشاء المدارس وعددها وعدد طلابها ومناهجها وانتماءَها الرسمي أو الطائفي/ الأهلي، وميّزت مدارس البنات في معرض الحديث من دون إيلائها اهتمامًا خاصًّا بها.

واهتمّ مؤرّخَا حلب محمد راغب الطباخ وكامل الغزّي[5] بتدوين السيرورة التاريخية لمدارس البنات بوصفها حدثًا ضمن خط زمني عام للأحداث، وسلك مسلكهما محمد فؤاد عينتابي ونجوى عثمان في موسوعتهما[6]، غير أنّ هذه الجهود ظلّت محصورة في سياق

1 نعني بتعابير "البلاد السورية" و"سورية العثمانية" و"المنطقة/ المناطق السورية" و"ولاية سورية" و"المدن السورية" المدنَ والمناطقَ التي ضمّتها ولاية سورية العثمانية، إضافةً إلى مدينة حلب. وقد تشكّلت هذه الولاية بموجب قانون الولايات العثماني لعام 1864. وهي لا تشمل ولاية حلب، ومتصرفية جبل لبنان، وسنجق القدس، والجزيرة السورية، لكنها تشمل باقي سورية الحالية، وباقي لبنان، وباقي فلسطين والأردن.

2 نزار أباظة، **مدارس دمشق ومعاهدها خلال القرن الرابع عشر الهجري: دراسة في مؤسسات التعليم الأهلي** (دمشق: دار الفكر، 2020).

3 أحمد حلمي العلاف، **دمشق في مطلع القرن العشرين** (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1976).

4 عائشة الدباغ، **الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين** (بيروت: دار الفكر، 1972).

5 محمد راغب الطباخ، **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء** (حلب: دار القلم العربي، 1988).

كامل الغزّي، **نهر الذهب في تاريخ حلب** (حلب: دار القلم العربي، 1991).

6 محمد فؤاد عينتابي ونجوى عثمان، **حلب في مئة عام 1850-1950**، 3 ج (حلب: منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، 1993).

التوثيق الإخباري. في مقابل ذلك، قدّم كريستيان ساسمانسهاوزين دراسة تناولت تعليم البنات في مدينة طرابلس التي كانت آنذاك ضمن ولاية سورية[7]. أمّا أشمل مصدر تناول إحصاءات التعليم في الدولة العثمانية، فهو كتاب فاضل بيات[8] الذي أورد تفاصيل المدارس، غير أنّه لم يقدّم تحليلًا يتجاوز معطيات الأرشيف العثماني.

لذا، تسعى هذه الدراسة لبحث تاريخ مؤسسات تعليم البنات في سورية من خلال الجمع بين المنهج التاريخي الإحصائي ومنهج الدراسة الاجتماعية، للإجابة عن ثلاثة تساؤلات: كيف تطوّر تعليم البنات في سورية؟ وما دور الدولة في ذلك؟ وكيف تعامل المجتمع مع هذه القضية؟

للإجابة عن هذه التساؤلات، تناقش الدراسة تفاعل الدولة والمجتمع الأهلي الذي كان آنذاك على طريق المأسسة، وتتناول - لفهم التأثير الفعلي الذي أحدثته تلك المؤسسات - مؤشّر الإقبال على التعليم، وذلك بعد استعراض السياق التاريخي في ثلاث مُدن سورية (تُمثل نماذج للدراسة): دمشق (مركز ولاية سورية)، وحلب (مركز ولاية حلب)، وحمص (مدينة وسط سورية تمثّل نموذج القائممقامية)، إلى جانب قراءةٍ للدوافع والعثرات على الصعيدَين الاجتماعي والسياسي.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على منهجية تحليلية تاريخية مقارنة؛ إذ جمعت المعلومات من المصادر الأولية، وفي مقدمتها وثائق الأرشيف العثماني الرسمي (Cumhurbaşkanlığı Osmanlı Arşivi) والحوليّات العثمانية (سالنامه)، إضافة إلى الصحف والمجلات العربية والتركية، من دون إهمال الأدبيات والدراسات الأكاديمية المحلّية والأجنبية السابقة.

أولًا: تطوّر التعليم في أواخر العهد العثماني

كان التعليم في السلطنة العثمانية، عمومًا، من اختصاصات أهل الملّة الواحدة ومسؤولية مؤسستها الدينية. فبالنسبة إلى السكان المسلمين مثلًا، اقتصر التعليم المحلّي، في أغلب جوانبه، على التعليم الشرعي ضمن "الكتاتيب" أو "مدارس الصبيان" المنتشرة في الحارات، المرتبطة في أغلبها بالجوامع والمساجد؛ ومنها ما يعتمد على أوقاف تلك المساجد في تأمين استدامته. كانت هذه الكتاتيب توفّر تعليمًا بسيطًا يتضمّن القراءة والكتابة والقرآن الكريم وبعض أساسيات الحساب. وإنْ أراد الطالب رفع مستوى تعليمه أو الانضمام إلى فئة "علماء الشرع"، فله أن يتابع تعليمه في "المدارس" الشرعية.

أما على صعيد الدولة، فكانت توجد محاولات جادّة لإصلاح المنظومة العسكرية في السلطنة العثمانية بعد النكسات المتلاحقة التي مُنيت بها خلال القرن الثامن عشر، وهي متمثّلة في خسارة أجزاء من أراضيها في الشرق والغرب، خصوصًا في الحرب الروسية العثمانية (1768-1774). وتمثّلت أولى الحركات الإصلاحية العسكرية في افتتاح غرفة الهندسة "هندسه اوطه سى" بين عامَي 1773-1776 بوصفها أول مؤسّسة تعليمية عصرية على مستوى السلطنة، من أجل إعداد كادر عسكري قادر على تطوير سلاح البحرية العثماني[9]. وتبعتها "المدرسة الهندسية البرّية السلطانية" عام 1795 لتخريج ضباط مدفعية واستحكام، وفق رؤية السلطان الإصلاحي

7 Christian Sassmannshausen, "Educated with Distinction: Educational Decisions and Girls' Schooling in Late Ottoman Syria," *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 62, no. 1 (December 2019), pp. 222-256.

8 فاضل بيات، **المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني: دراسة تاريخية إحصائية في ضوء الوثائق العثمانية** (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية إرسيكا، 2013).

9 Mustafa Kaçar, "Tersâne Hendesehânesi'nden Bahriye Mektebi'ne Mühendishâne-İ Bahrî-İ Hümâyûn," [**مدرسة الهندسة البحرية الهمايونية: من المدرسة الهندسية في الترسانة إلى مكتب البحرية**], *Osmanlı Bilimi Araştırmaları*, vol. 9, no. 1-2 (2007-2008), p. 51.

سليم الثالث (1761-1808، حكم في الفترة 1789-1808) لإنشاء جيش نظامي حديث عُرِفَ بـ "النظام الجديد"، بدلًا من الجيش القديم للسلطنة: الجيش الإنكشاري؛ الذي كان يعاني اضطرابًا وأصبح مصدرًا للقلق للدولة والأهالي[10].

في البداية، غلب الطابع العسكري والتقني على الإصلاحات المبكرة في مجال التعليم، على الأقل حتى إعلان "فرمان التنظيمات" عام 1839؛ إذ إنّ السلطان الإصلاحي محمود الثاني (1785-1839، حكم في الفترة 1808-1839) نجح قبل وفاته بفترة قصيرة في رسم الطريق الجديد للمنظومة التعليمية الحديثة في السلطنة عبر استحداث "مجلس أمور النافعة" عام 1838، و"نظارة المكاتب الرشدية" عام 1839، و"مكتب المعارف العدلية" عام 1839[11].

وبدأت تظهر التأثيرات الحقيقية لهذه الإصلاحات في مجال التعليم بعد إعلان فرمان "التنظيمات الخيرية" عام 1839، مع تأسيس مجلس المعارف العمومية الدائم (1846)، الذي وضع نظام التعليم المتدرّج (ابتدائي - متوسط - عالٍ)، ونزعَ "نظارة المكاتب الرشدية" من هيمنة الأوقاف وجناح التعليم التقليدي/ الشرعي، لتصبح تشكيلًا مستقلًا في إطار مجلس المعارف باسم "نظارة المكاتب العمومية" عام 1846[12].

ثم أُنشئت "إنجمن دانش"/ "الهيئة العلمية" عام 1851 بوصفها أول هيئة علمية أكاديمية على الطراز الأوروبي، وقد تخصّصت في تأليف المناهج والكتب الدراسية وترجمتها[13]. وأخيرًا؛ بعد إعلان "فرمان الإصلاحات" عام 1856، وقد تضمّن توضيحًا لفكرة التعليم العمومي الذي لا يفرّق بين أفراد الملّة، وسمح بإنشاء المكاتب الخاصة تحت نظارة مجلس معارف، تأسست "نظارة المعارف العمومية" عام 1857. وقد أسفرت الجهود الأخيرة عن استحداث مؤسّسات تعليم نظامية وحديثة لكل أفراد الأمّة العثمانية، بغضّ النظر عن طوائفهم وأديانهم[14]. وتمثّلت هذه المؤسسات في المدارس النظامية على مختلف مراحلها: الابتدائية، والرشدية، والإعدادية[15]. واستُحدثت لاحقًا مؤسسات لتأهيل كوادر المعلمين والمعلّمات، كما سنرى لاحقًا، وكليات عليا لتدريس الحقوق والإدارة والطب، وهي مؤسسات مدنية موازية للمؤسسات العسكرية الحديثة التي كانت قد استُحدثت في وقت أبكر.

ومع ذلك، بقيت الحالة المحلّية - التقليدية سمةً عامة للتعليم حتى أواخر العهد العثماني، خصوصًا في الأقضية والنواحي؛ إذ إنّ تأسيس المدارس النظامية لم يكن يعني دائمًا تطبيق المعايير المتصوّرة في الواقع؛ ولم تكن أغلب المدارس الابتدائية النظامية في الأقضية إلا كتاتيب تقليدية ضمن المساجد والجوامع، يجلس طلابها على الحصير ويعلّمهم شيخ الحارة أو إمام المسجد[16].

---

10 Kemal Beydilli, "Nizam-ı Cedid" [**النظام الجديد**], *TDV İslâm Araştırmaları* Merkezi, vol. 33 (İstanbul: TDV İslâm Araştırmaları Merkezi, 2007), pp. 175-178.

11 للمزيد، ينظر:

Teyfur Erdoğdu, "Maarif-i Umumiyye Nezareti Teşkilatı-I," [**تشكيلات نظارة المعارف العمومية**], *Ankara Üniversitesi Siyasal Bilgiler Fakültesi Dergisi*, vol. 1, no. 51 (1996), pp. 183-247.

12 Ibid., p. 199.

13 Ibid., p. 197.

14 Ibid., pp. 203-204.

15 يُقابل المستوى "الرشدي" في النظام التعليمي العثماني ما نسمّيه اليوم المستوى الإعدادي، في حين يقابل المستوى "الإعدادي" المستوى الثانوي.

16 ومن أمثلة ذلك تقرير مفتّش المعارف الابتدائية في حوران عن حال المدارس الابتدائية التي لا تعدو كونها حلقات كتاتيب على أرضية ترابية، من دون وجود جدران أو أثاث أو مستلزمات مدرسية.

أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم التدريسات الابتدائية في نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.İBT.289/1.

ثانيًا: المرأة وتعليمها في أواخر العهد العثماني

قلّما نجد أمثلة أو معلومات ذات صلة بتعليم البنات في الدولة العثمانية قبل القرن التاسع عشر. غير أنّ مقابلة الأدبيات القديمة ببعض المصادر تشير إلى أنّ تعليمهنّ لم يكن مختلفًا عن كتاتيب الصبيان من حيث النوعية[17]. فقد ارتبطت كتاتيب البنات بالأوقاف الشخصية أو بالجوامع والزوايا[18]. وكان الفارق أنّ تعليمهن اقتصر على ما يقابل مرحلة التعليم الابتدائي، المتضمّنة دروس تعليم القراءة والكتابة والقرآن وبعض العبادات والأحكام، بينما لم يكن متاحًا للبنات الانتساب إلى المدارس الشرعية لتحصيل تعليم أعلى، وظلّ الأمر مقرونًا بالتحصيل الفردي لدى معلّمات خصوصيّات. وكانت فرص هذا النوع من التعليم الخاص مقتصرة في الغالب على بنات أو زوجات الأثرياء والعلماء ورجال الدولة[19].

ومع ذلك، فإن الإصلاحات التي طُبّقت في مجال التعليم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ستنعكس على البنى الاجتماعية في مختلف حواضر السلطنة. لم تظهر نتائج الإصلاحات الإدارية على البنى الاجتماعية العثمانية فورًا، بل مرّت بمراحل طويلة ومتدرّجة. فالطلاب العثمانيون الذين ابتُعثوا للدراسة في الخارج، وافتتاح مدرسة عثمانية في باريس عام 1857 لإعداد كوادر وطنية جديدة، وكذلك الموظفون ورجال الدولة الذين انتظموا في سلك الدولة الحديث ودوائره العسكرية والإدارية والتعليمية، بدؤوا يؤثّرون تدريجيًا في عائلاتهم وأوساطهم الاجتماعية؛ ولا سيمّا بعد اطّلاعهم على نماذج جديدة من العمل تتضمن مشاركة نسائية، سواء كان ذلك في المغترب الأوروبي، أو في العاصمة إسطنبول التي سكنت فيها نخب أوروبية من سفراء وقناصل وتجّار، أو في مناطق البلقان الغربية ذات التنوّع القومي والديني والأقرب إلى أوروبا منها إلى الشرق[20].

وقد شهد عام 1859 حدثًا مهمًّا في مجال تعليم النساء، وهو افتتاح أول مدرسة نظامية حديثة للبنات في إسطنبول عام 1859، بعد نحو عقد من افتتاح نظيرتها للذكور.

ومع وصول رجل الدولة الإصلاحي محمد أسعد صفوت باشا إلى نظارة المعارف عام 1869، أُقرّ في هذا العام قانون التعليم الإلزامي للذكور والإناث للمرحلة الابتدائية، واستُحدثت أول مدرسة مهنية للإناث، وصدر قرار تأسيس أول دار للمعلّمات من أجل تهيئة الكوادر اللازمة لمدارس البنات التي ستفُتتح لاحقًا. وشَهِدَ العام نفسه، أيضًا، إنشاء أول جريدة خاصة بالنساء باللغة التركية هي "ترقيء مخدّرات"[21] (صدرت بين 27 حزيران/ يونيو 1869 وأيلول/ سبتمبر 1870). وقد أدّت هذه الجريدة، على الرغم من قصر مدة صدورها،

17 ومن أمثلة ذلك، ما ذكره أحمد حلمي العلّاف عن مدارس البنات في كتابه: أحمد حلمي العلّاف، **دمشق في مطلع القرن العشرين** ، ص 197؛ وما ذكره نعيم سليم الزهراوي في كتابه: نعيم سليم الزهراوي، **الكتاتيب والمدارس في حمص** (حمص: دار السلامة للنشر، [د. ت])، ص 30-31؛ وعن تعليم البنات التقليدي في السلطنة العثمانية ، ينظر أيضًا:

Selçuk Akşin Somel, "Osmanlı Modernleşme Döneminde Kız Eğitimi" [**تعليم البنات في عصر التجديد العثماني**], *Kebikeç*, no. 10 (2000), pp. 223-227; & Naz Sarıaslan, *Osmanli Modernleşmesinde Kiz Çocuklarinin Eğitime Katilma Sürecine ve Kiz Sanayi Mekteplerine Kisa Bir Bakiş* [**نظرة على إقبال البنات على التعليم والمدارس المهنية في عصر التجديد العثماني**] (Ankara: Hacettepe Üniversitesi Atatürk İlkeleri ve İnkılap Tarihi Enistüsü, 2023).

18 ومن أمثلة ذلك أوقاف آقوالي زاده خاتم أحمد أفندي في مدينتي كسرية وترحاله في اليونان، التي استُحدثت بموجبها كتاتيب لتعليم البنات في منتصف القرن الثامن عشر. ينظر: أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق المعارف في تصنيف جودت، ووثائق السلطان محمود الأول في تصنيف علي أميري، تصنيف: COA, C.MF.35/1721; AE.SMHD.I.93/6410

19 İlber Ortaylı, *Osmanlı Toplumunda Aile* [**العائلة في المجتمع العثماني**] (İstanbul: Timaş Yayınları, 2013), pp. 79-80.

20 يتّضح التأثير الغربي في طبقة المتعلّمين العثمانيين من خلال ردّة فعلٍ الدولة خلال العهد الحميدي وحرصها الشديد على إدخال التعليم الديني؛ إذ إنّ "الطلاب في مدرسة غلطة سراي Galatasaray Lycée يجب أن يُبقوا بعيدين عن الكتبٍ الغربية المضرّة بمصالح الدولة العلية" (منقول عن مذكرة قدّمها مكتب شيخ الإسلام إلى قصر يلدز). ينظر: Deringil, pp. 94-95.

21 المخدَّرات: جمع مُخدِّرَة، أي المرأة التي لا تغادر خِدرها، فهي مستترة عن الرجال، ويُراد بها المحصَّنة المكرّمة.

دورًا مهمًّا في تحفيز الجانب الثقافي النسائي في السلطنة، كما وضّحت الرسائل التي كانت تَرِد إليها من نساء في مختلف أنحاء البلاد أنّ القراءة والكتابة أصبحتا من سمات مجتمع النخبة النسائي العثماني، وأصبحت مراسلة الصحف ومطالعتها تشبه "الموضة"[22].

وفي الحقيقة، شكّلت الصحف النسائية آنذاك، مثل "آيينه" (1875)[23]، و"عائله" (1880)، و"انسانيت" (1883)، و"مروّت" (1888)، وغيرها[24]، فضاءً للتعبير عن المطالب الاجتماعية التي كانت تتطوّر على نحو مطّرد مع التحديثات التي طرأت على مناهج مدارس الإناث الرشدية خلال الأعوام 1869، و1878/1877، و1898/ 1899[25].

ولربما أدّت التحديثات التي طرأت على المناهج عبر السنين دورًا في توجيه المرأة العثمانية وفق تصوّر الدولة لدورها الاجتماعي، أي أنْ تصبح أمًّا وزوجة صالحة. ويتجلى توجّه الدولة في استخدام المدارس بوصفها أداة مؤسساتية للانضباط الاجتماعي في زيادة المحتوى الديني مع كلّ تحديث في مناهج الإناث، وفي التركيز على مقرّرات "الأخلاق" التي كان حضورها في مناهجنّ يزيد على حضورها في مناهج الذكور، وفي إضافة إلى دروس الأشغال المنزلية[26]. وقد ظلّت مناهج الذكور والإناث الرسمية في المرحلة الابتدائية متطابقة كليًّا حتى مطلع القرن العشرين على الأقل، باستثناء دروس الخياطة والتطريز التي شكّلت استثناءً دائمًا. ومع بداية القرن العشرين، أُضيفت دروس الفقه والعبادات. وأُضيفت دروس "الفقه والعبادات للنساء" إلى طالبات الصف الثالث. وأُضيفت دروس "الأشياء والعلوم النافعة"، و"الإدارة البيتية"، و"الأخلاق"، و"حفظ الصحة"، و"أشغال يدوية"، إلى برنامج المدارس الرشدية. ولكن على المستوى المحلّي ركّز مجلس المعارف في دمشق على إيجاد تمايز واضح في مناهج مدارس البنات، فأضاف دروس الخياطة والحياكة والتطريز وتعليم "ماكينة" الخياطة، وهكذا يمكن ملاحظة هذا التوجّه الأسري - الديني لدى المؤسسات التعليمية الخاصة بالبنات[27].

ثالثًا: السياق التاريخي لسردية تعليم البنات

1. دمشق

بعد أن كانت دمشق عاصمة ولاية الشام طوال أكثر من ثلاثة قرون، ظلّت مركزًا لولاية سورية المستحدثة بموجب قانون تشكيل الولايات عام 1864، وقد ضمّت آنذاك ألوية بيروت والقدس وطرابلس وعكا وحماة وحمص وحوران والبلقاء[28].

22 ومن أمثلة ذلك أنّ السيدة خيرية خانم أوضحت، في مكتوب لها إلى جريدة "ترقّيء مخدّرات"، في 13 تموز 1285 مالية/ 25 تموز 1869 ميلادية، أنّ تعلّمها للقراءة والكتابة بدعمٍ من زوجها جعلها متفوّقة على أقرانها. ينظر:
Ebru Davulcu-Mustafa Temel, "Osmanlı Devleti'nde Yayınlanan İlk Kadın İlavesi Terakki-i Muhadderat'taki Kadın Mektuplarının Tahlili" [**تحليل مراسلات في "ترقّي المخدّرات": أول ملحق صحافي نسائي في الدولة العثمانية**], *Gazi Üniversitesi letişim Kuram ve Araştırma Dergisi*, no. 44 (2017), pp. 229-230.

23 مجلّة "**آيينه**": تعني "المرآة". صدرت في سيلانيك عام 1875، وكانت موجّهة حصريًّا إلى النساء والأطفال.

24 Selda Malkoç & Duygu Vefikuluçay Yilmaz, "Osmanli Dönemi Kadin Dergileri" [**المجلات النسائية في العهد العثماني**], *Uluslararası Sosyal Araştırmalar Dergisi,* vol. 12, no. 63 (2019), pp. 654-659.

25 Badegül Eren Aydınlık & Seyfi Kenan, "Between Men, Time and the State: Education of Girls During the Late Ottoman Empire (1859-1908)," *Paedagogica Historica*, vol. 57, no. 4 (2019), pp. 400-418.

26 **سالنامهء نظارت معارف عموميه [حولية نظارة المعارف العمومية]** (دار الخلافة العلية: مطبعة العصر، 1316هـ/ 1899م)، ص 224-226، 256؛ **سالنامهء ولايت سوريه [حولية ولاية سورية]** (شام شريف: مطبعة الولاية، 1299هـ/ 1882م)، ص 150؛ **سالنامهء ولايت سوريه** (شام شريف: مطبعة الولاية، 1300هـ/ 1883م)، ص 152.

27 Aydınlık & Kenan, pp. 400-418.

28 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قسم العقود في ديوان الصدارة العظمى، تصنيف: COA, A.DVN.MKL.80/14.

وبحلول عام 1878، كانت المؤسسات التعليمية في مدينة دمشق تنقسم إلى مؤسسات رسمية مقتصرة على الطلبة الذكور، ومؤسسات أهلية متوزّعة بين الكتاتيب والمدارس الشرعية ومدارس الطوائف، فضلًا عن مدارس البعثات التبشيرية (الإرساليات).

ارتبط التعليم غير الرسمي في دمشق على نحو رئيس بالمؤسسة الدينية؛ فبينما كانت المدارس الشرعية الإسلامية التي تعنى بتخريج الأئمة والخطباء ورجال الدين مقتصرة على الذكور، انتشرت الكتاتيب التي تعنى بتعليم الصبيان والبنات مبادئ العلوم في مختلف حارات دمشق، وكان كثير منها تحت إشراف معلّمات نسوة أطلق عليهنّ لقب "خجة"[29]، يُدرّسن أطفال الحيّ في بيوتهنّ مبادئ القراءة وقصار سور القرآن[30]. وبحسب إحصاء رسمي أجري عام 1871، بلغ عدد كتاتيب البنات في حارات دمشق، التي يتعلّمن فيها مبادئ القراءة والكتابة والحساب، 28 كتّابًا ضمّ 294 تلميذة، مقابل 74 كتّابًا للذكور ضمّ 1257 تلميذ[31]. ولم تكن الكتاتيب مقتصرة على المسلمين؛ فقد أُحصي 12 كتّابًا يهوديًّا عام 1879 ضمّ 350 تلميذًا[32]، في حين لم تكن هنالك أيّ مؤسسة رسمية مختصة بتعليم البنات[33].

أما مدارس الطوائف والإرساليات، فقد كانت على مستوى أعلى كثيرًا من حيث عدد المدارس وإقبال الطالبات؛ فللذكور 19 مدرسة لطوائف الروم الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت والسريان والأرمن واليسوعيين واليهود[34]. وللبنات ثماني مدارس: المدرسة الإنجيلية الأميركية التي تأسست عام 1835[35]، ومدرسة الروم الأرثوذكس، والمدرسة الإنكليزية، والمدرسة اليسوعية، والمدرسة العازارية، والمدرسة الإنكليزية الإسلامية، ومدرسة الكاثوليك في الميدان، والمدرسة الإنكليزية في الميدان. على أنّ اليهود افتتحوا لاحقًا مدرسة "اليانس اسرائيليت" الابتدائية والرشدية للبنات عام 1883[36]، وأصبحت المدرسة الإنجيلية تضمّ المستوى الدراسي الثانوي في أواخر القرن التاسع عشر[37].

ومع وصول الوالي الإصلاحي والصدر الأعظم السابق مدحت باشا (1822-1883، تولّى سورية 1878-1881) إلى ولاية سورية، التي كانت على "صفيح ساخن" بسبب الأزمات السياسية والاقتصادية[38]، أعلن في أولى خطبه عن مجموعة إصلاحات ركّز فيها على الجانب التعليمي بعد أن لفت نظره تدنّي المستوى التعليمي، وخصوصًا الرسمي، في دمشق، وانتشار مجموعات من الصبيان في

29 خجة، أو خوجة: كلمة، من أصل فارسي، مستعملة في اللغة التركية Hoca بمعنى المعلّم والمربّي، وتُطلق على الرجال والنساء.

30 نزار أباظة، **مدارس دمشق ومعاهدها خلال القرن الرابع عشر الهجري: دراسة في مؤسسات التعليم الأهلي** (دمشق: دار الفكر، 2020)، ص 29-30.

31 **سالنامهء ولايت سوريه** (شام شريف: مطبعة الولاية، 1288هـ/ 1871م)، ص 130.

32 نعمان قساطلي، **الروضة الغناء في دمشق الفيحاء**، سلسلة التواريخ والرحلات 4 (بيروت: دار الرائد العربي، 1982)، ص 120.

33 المرجع نفسه، ص 119.

34 وهي تسع مدارس للروم الأرثوذكس داخل المدينة القديمة، وعاشرة في حيّ الميدان، إضافة إلى المدرسة الإنجيلية الأميركية، والمدرسة البطريركية الكاثوليكية، والمدرسة الكاثوليكية في الميدان، والمدرسة الكاثوليكية السريانية، ومدرسة الأرمن القدماء، ومدرسة السريان اليعقوبيين، والمدرسة العازارية، ومدرسة الفرانسيسكان، والمدرسة الإنكليزية اليهودية التي لها فرع في الميدان. ينظر: قساطلي، ص 118-119.

35 **سالنامهء نظارت معارف عموميه** (دار الخلافة العلية: مطبعة العصر، 1321هـ/ 1903م)، ص 538.

36 **سالنامهء نظارت معارف عموميه (1321هـ/ 1903م)**، ص 535.

37 **سالنامهء نظارت معارف عموميه (1316هـ/ 1899م)**، ص 1087.

38 أثّرت أزمة البلقان (في منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر) والحرب العثمانية - الروسية (1877-1878) سلبيًّا في سكان سورية؛ إذ فرضت الدولة التجنيد الإجباري على الشباب، ونظّمت حملات تبرعات للجهد الحربي، وفرضت مزيدًا من الضرائب، وعجزت عن دفع المرتبات عدة مرات. وفي دمشق، تظاهرت نساء من أهالي الجنود ضدّ ارتفاع أسعار الخبز، وعقدت مجموعة من الأعيان السوريين اجتماعًا للتداول في خطر انهيار الإمبراطورية. وكانت العلاقات الإسلامية - المسيحية متوترة، لأن التجنيد والقتال، اللذين انتهيا بهزيمة الدولة، وقعا على عاتق المسلمين من دون المسيحيين. يُضاف إلى ذلك مجيء آلاف من المهاجرين البلقانيين والشركس إلى مدن دمشق وحمص وحماة، التي تحمّلت تكاليف إسكانهم وإطعامهم من خلال ضرائب إضافية. للمزيد عن أزمة دمشق والاحتجاجات فيها، ينظر:

Tufan Buzpınar, "A Reassessment of Anti-Ottoman Placards in Syria, 1878-1881," in: Tufan Buzpınar & Gökhan Çetinsaya (eds.), *Abdülhamid II and His Legacy: Studies in Honour of F. A. K. Yasamee* (Istanbul: The ISIS Press, 2019), pp. 99-126.

شوارع المدينة امتهنت السرقة والنشل والتعدّي وعُرفت باسم "أولاد البابا حسن"[39]. لذا، ألقى في أعيان دمشق خطابًا دعا فيه إلى افتتاح مدارس ابتدائية نظامية حديثة "يكون التدريس بها على طريق الأصول الجديدة الجارية في الممالك المتمدّنة"، وحضّ على نحو خاص على افتتاح مدارس للبنات وتعميمها على مختلف أنحاء ولاية سورية[40].

اتجهت سياسة مدحت باشا نحو النهوض بالتعليم في دمشق من دون إنهاك خزينة الدولة المُفلسة أصلًا. وفي إثر ذلك شكّل أعيان دمشق، بتوجيهات الوالي، "الجمعية الخيرية" للمعارف عام 1879[41] برئاسة الوجيه والعالم الشرعي علاء الدين عابدين (1828-1888)، ومفتّشية الشيخ الإصلاحي طاهر الجزائري (1852-1920). ووجّه الوالي إلى تخصيص إعانة سنوية للجمعية تُحصّل من جميع الأعضاء ومن تبرعات الأهالي. وقد أُعيد توثيق الأوقاف وضبط وارداتها وتثبيت نُظّارِها، وخصوصًا الدارسة منها[42]؛ وبذلك تمكّنت الجمعية من توفير مئة ألف قرش سخّرتها لإحياء بعض الجوامع والمدارس الشرعية القديمة وتحويلها إلى مدارس ابتدائية نظامية[43]. وفعلًا كُشف عن ثمانية مواقع في أثمان دمشق[44] لتؤسّس سبع مدارس للذكور وواحدة للبنات[45]، ثم قرّرت الجمعية زيادة أربع مدارس بالنسبة إلى البنات وتسع مدارس بالنسبة إلى الذكور. وفيما يخصّ مدارس البنات الأربع الجديدة، بدأت حملة إصلاحات وترميمات شملت جامع ومدرسة المغيربية في القنوات، وجامع ومدرسة الشنباشية في الشاغور، ومدرسة السليمانية الجوّانية في العمارة، وجامع القرمشي في سوق ساروجة خارج أسوار دمشق[46].

ومع بدء العام الدراسي عام 1879م، كانت الترميمات قد انتهت فعلًا في النقاط الأربع، فافتتحت للبنات مدارس المغيربية والقرمشية[47] والسليمانية والشنباشية التي زاد الإقبال عليها. وهكذا، أصبح في دمشق خمس مدارس ابتدائية للبنات[48].

وفي نهاية العام الدراسي، أقيم أوّلَ مرة في تاريخ دمشق امتحانٌ عامّ لمدارس البنات الرسمية، وذلك برفقة طلاب المدارس الابتدائية من الذكور في دار مراد القوتلي، وبحضور أعيان وعلماء دمشق، ووزّعت الجوائز على المتفوقين والمتفوقات في الامتحان[49]. وسُجّل في السنوات اللاحقة تزايد الإقبال على نحو كبير على مدارس دمشق الأربع[50]؛ إذ أحصيت 296 طالبة عام 1880، وفي العام التالي (1881) 380 طالبة، والعام الذي يليه (1882) 420 طالبة.

39 مراسل ثمرات الفنون، "الشام من مكاتبنا"، جريدة **ثمرات الفنون**، العدد 209، 1878/12/30، ص 4.

40 مراسل ثمرات الفنون، "الشام في 26 ذ سنة 95 تأخر ورودها"، **ثمرات الفنون**، العدد 209، 1878/12/30، ص 3.

41 **سالنامهء ولايت سوريه** (شام شريف: مطبعة الولاية، 1297هـ/ 1880م)، ص 126.

42 الأوقاف الدارسة: هي الأوقاف التي فقدت غايتها بسبب الظروف، أو التي لم يعد لها مستفيدون مشروطٌ لهم في كتاب الوقف، أو لم تعد مواردها كافية لتغطية أيّ مؤسسة خيرية.

43 علي حيدر مدحت، **مدحت باشا، تبصرهء عبرت** (إستانبول: مطبعة هلال، 1909)، ص 208.

44 كانت دمشق تنقسم في أواخر العهد العثماني إلى ثمانية أثمان، وكلّ ثمن إلى مجموعة من الأحياء. وهذه الأثمان هي: القيمرية، والشاغور، والميدان الفوقاني، والميدان التحتاني، والقنوات، والعقيبة، والعمارة، والصالحية.

45 عبد القادر قباني، "كتب إلينا من الشام ما حاصله"، **ثمرات الفنون**، العدد 213، 1879/1/28، ص 1-2.

46 عبد القادر قباني، "كتب إلينا من الشام بتاريخ 20 جمادى الأولى"، **ثمرات الفنون**، العدد 229، 1879/5/19، ص 1.

47 عبد القادر قباني، "كتب إلينا من الشام في أوائل رجب"، **ثمرات الفنون**، العدد 237، 1879/7/15، ص 1.

48 مراسل ثمرات الفنون، "الشام في 27 ربيع أول"، **ثمرات الفنون**، العدد 272، 1880/3/16، ص 3.

49 مراسل ثمرات الفنون، "الشام في 22 الماضي - تأخر نشرها من ضيق المقام"، **ثمرات الفنون**، العدد 293، 1880/8/9، ص 1.

50 تعطّل التعليم في المدرسة القرمشية مدة عامين لسبب مجهول؛ لذا شملت الإحصائية المدارس الثلاث فقط.

شهدت الجمعية الخيرية الأهلية بعد عزل مدحت باشا وتعيين الوالي حمدي باشا (1826-1885)، تولى سورية (1880-1885)، في صيف عام 1881، عملية مأسسة للحرص على استدامتها من الأوقاف المحلّية[51] بعد تعذُّر استدامتها من تبرعات الأعضاء في العام السابق[52]. وتحوّلت الجمعية عام 1883 إلى مجلس معارف رسمي يشرف على ميزانية التعليم في دمشق والولاية السورية كلّها بالتنسيق مع نظارة المعارف في العاصمة[53]. وكانت أولى إنجازات هذا المجلس إعادة افتتاح مدرسة القرمشية للبنات في سوق ساروجة، وإجراء مسح كامل لكتاتيب الذكور والبنات التقليدية في دمشق التي بلغت 90 كتّابًا، من بينها 12 كتّابًا للبنات ضمّ 242 طالبة، و19 كتّابًا مختلطًا ضمّ 567 من الطلّاب والطالبات[54]. وتوجّه مجلس المعارف في السنتين اللاحقتين إلى دعم كتاتيب البنات التقليدية، فافتتح 9 كتاتيب جديدة ليصبح عدد الطالبات 505 بحلول عام 1885[55].

ولن تنتظر دمشق كثيرًا لتشهد افتتاح أول مدرسة رشدية (إعدادية) للبنات؛ فقد صدرت الإرادة السلطانية بذلك في أواخر عام 1885[56]، وافتتحت المدرسة صيف 1886[57]، وضمّت في البداية 13 طالبة تحت إشراف معلّمة واحدة. وبسبب نقص الموارد لدى مجلس المعارف، اضطرّ إلى تسوية بعض حسابات الأوقاف ومراجعة الميزانية المحلية للمدارس الابتدائية من أجل تأمين راتب المعلّمة الثانية[58]، فتأخّر تعيينها حتى عام 1893[59].

ومع حاجة أهالي الصالحية وركن الدين إلى مدرسة للإناث بسبب بُعد منازلهم عن المدينة القديمة، تمكّن الأهالي والأعيان، بتشجيع مدير المعارف، من فتح مدرسة ابتدائية رسمية جديدة للبنات في آذار/ مارس 1892 بعد أن جرى تأمين وارداتها من الأوقاف المحلّية[60].

وهنا تجدر الإشارة إلى الحركة الأهلية للمدارس؛ إذ استمرّ افتتاح كتاتيب الذكور والبنات في دمشق بجهود محلّية. ومن أبرز الأمثلة الدالّة على ذلك الكتّاب الذي افتُتح في عام 1890 في حي الخراب (الأمين) ضمن منزل إحدى النسوة على نفقة التاجر الحاج يوسف بيضون (1840-1927)، وهو الكُتّاب الذي سيتحوّل في عهد الانتداب إلى "المدرسة اليوسفية" التي ما زالت نشطة إلى يومنا هذا[61].

وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، أي طوال أكثر من عشرين عامًا (1892-1914)، لم تشهد دمشق افتتاح أي مدارس رسمية جديدة للبنات، باستثناء مدرسة الصنائع المهنية النسائية عام 1900 في موقع البيمارستان النوري وقبول خمسين طالبة من الفقراء فيها وتقديم الحساء لهنّ يوميًا. وكان ذلك بعد تعاون بين مجلس المعارف المحلّي وإدارة المالية المحلّية بدمشق للاستفادة من أوقاف سنان باشا وبعض مخصصات التكية السليمية والتقنين في ميزانية المدارس الابتدائية[62].

51 تمّ تشكيل شعبة للواردات وشعبة للإدارة. **سالنامه‌ء ولايت سوريه** (شام شريف: مطبعة الولاية، 1298هـ/ 1881م)، ص 123.
52 عبد القادر قباني، "بلا عنوان"، **ثمرات الفنون**، العدد 279، 1880/5/3، ص 1.
53 **سالنامه‌ء ولايت سوريه (1300هـ/ 1883م)**، ص 100.
54 المرجع نفسه، ص 152.
55 **سالنامه‌ء ولايت سوريه** (شام شريف: مطبعة الولاية، 1302هـ/ 1885م)، ص 238.
56 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق الإرادة الداخلية، تصنيف: COA, İ.DH.970/76613.
57 عبد القادر قباني، "بلا عنوان"، **ثمرات الفنون**، العدد 591، 1886/8/2، ص 1.
58 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.167/106.
59 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.181/39.
60 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.143/60.
61 أباظة، ص 149-152.
62 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.535/9.

وعاشت دمشق خلال الحرب العالمية الأولى تطوّرًا استثنائيًا بتأسيس الحاكم العسكري لسورية جمال باشا (1873-1922) أوّل ثانوية للبنات في دمشق أطلق عليها اسمه، وقد استحضر لإدارتها الأديبة التركية الشهيرة خالدة أديب (1884-1964).

لم تستمرّ ثانوية جمال باشا للبنات إلا سنة دراسية واحدة؛ إذ إنّ اشتداد ظروف الحرب، ثمّ عزل جمال باشا عن سورية، جعل خالدة أديب ومن معها من المعلّمات يعدن أدراجهنّ إلى إسطنبول وجعل المدرسة تغلق أبوابها كليًّا[63].

2. حلب

لم تكن المؤسسات التعليمية في مدينة حلب، عاصمة "ولاية حلب"، وإحدى أهم مدن السلطنة، تختلف اختلافًا كبيرًا عن نظيرتها في دمشق من حيث تبعيتها للمجتمع الأهلي، على نحو رئيس، وقلّة عدد المؤسسات التعليمية الرسمية؛ فالمؤسسات متوزّعة على نحو رئيس بين مدارس تقليدية (كتاتيب ومدارس شرعية)، ومدارس الطوائف والإرساليات التي كانت تحظى بتفوّق ملحوظ. فقد انتشرت مدارس الروم الأرثوذكس، والكاثوليك، والسريان، والأرمن بطوائفهم، والبروتستانت، واليهود، واليسوعيين، والمارونيّين، واللاتين، وبعضها يعود تأسيسه إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

ولكنّ اللافت للانتباه أنّه بحلول عام 1880 كانت مؤسسات التعليم الرسمية غائبة عن المشهد، عدا مدرسة رشدية واحدة للذكور. لذلك، كانت حلب في تلك الفترة متأخّرة عن دمشق التي كانت تضم سبع مؤسسات تعليمية رسمية آنذاك.

ولعلّ لائحة الوالي إسماعيل رحمي باشا (ولايته من كانون الثاني/ يناير حتى كانون الأول/ ديسمبر 1855) إلى الباب العالي عام 1855 تنبئنا بجانب من الحالة التعليمية والاجتماعية في حلب؛ فقد بيّن فيها إهمال أهالي حلب تعلّم اللغة العربية وقواعدها واكتفاءهم بتعلّم قراءة القرآن في الكتاتيب، وانتشار الأمية بين الأطفال، فـ "ما يتكلّمونه أكثره لا يُعلم من كثرة الغلط"[64].

وفي هذه الحالة المتردّية، تسلّم جميل باشا (1830-1890)، تولّى حلب في الفترة 1880-1886) مقام ولاية حلب عام 1880، بل عُدَّ "واضع الحجر الأول في أساس المعارف" في حلب[65]؛ إذ أوعز عام 1882 بتشكيل هيئة معارف محلّية يترأسها الشيخ عطاء الله المدرّس، وقُرِّر الاقتداء بالجمعية الخيرية في دمشق من ناحية البحث عن الأوقاف الدارسة وضبطها وتنظيمها ليُصرَف ريعها على تأسيس وافتتاح مدارس نظامية. وبدأت الهيئة عملها بإجراء مسح للمدارس والكتاتيب في حلب، ثم تأسيس أولى المدارس الابتدائية الرسمية للذكور، حتى بلغ عددها 13 مدرسة في عهد جميل باشا[66]، الذي أسّس أيضًا مدرسة رشدية عسكرية، ووضع الخطط لتأسيس ثانوية سلطانية رسمية سيؤجَّل إنشاؤها وافتتاحها حتى عام 1892[67].

واستحالت هيئة المعارف المحلّية إلى مجلس معارف رسميّ عام 1884[68]، وقد ترأسه عام 1886 كمال بك، فرفع وتيرة عمل المجلس لافتتاح عدة مدارس جديدة، واستحدث صندوقًا خاصًّا بالمعارف تُجمع فيه غلّات الأوقاف الدارسة لتصرف على المدارس، وتكون نواةً لعمليات الاستثمار التي انتهجها مجلس المعارف ضمن أملاكه الخاصة من أراضٍ ودكاكين[69].

63 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق مديرية الأمور المحلّية والولايات في نظارة الداخلية، تصنيف: COA, DH.UMVM.67/52.

64 محمد راغب الطبّاخ، **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، مج 3، ط 2 (حلب: دار القلم العربي، 1988)، ص 354.

65 المرجع نفسه، مج 3، ص 372.

66 المرجع نفسه، ص 378.

67 المرجع نفسه، ص 384.

68 **سالنامهء ولايت حلب [حولية ولاية حلب]** (حلب: مطبعة الولاية، 1302هـ/ 1884-1885م)، ص 59.

69 كامل الغزّي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، مج 1 (حلب: دار القلم العربي، 1991)، ص 138.

ولكنّ جهود الوالي جميل باشا ومجلس المعارف ظلّت سنين عديدة محصورة في تأسيس مدارس للذكور؛ إذ إنّ افتتاح مدرسة رسمية للبنات لم يحدث حتى عام 1892، وذلك بعد إرادة سنيّة لافتتاح مدارس رشدية في حلب وديار بكر وكوسوفا وأضنة[70]، وهو العام نفسه الذي افتتح فيه المكتب الإعدادي (الثانوي) السلطاني للذكور. وبذلك، كانت حلب متأخرة عن دمشق، وحتى عن حمص أيضًا، في تأسيس أول مدرسة رسمية للبنات. وقبل تلك الفترة، كانت بعض النساء يرتدن مدارس الصبيان، فكنّ "يداومن" مع إخوتهم أو أقاربهم إلى أن يُخطبن فينقطعن عن التعليم. أمّا المتزوجات من الحوامل فقد كنّ يتوقّفن عن الدراسة ريثما يضعن أولادهنّ[71].

وعلى الرغم من أنّ المدرسة الرشدية للبنات في حي الفرافرة كانت للمستويين الابتدائي والإعدادي، فإنّها لم تكن كافية لاستيعاب جميع البنات الراغبات في الدراسة ضمن مدينة يجاوز عدد سكانها مئة ألف نسمة، أكثر من نصفهم نساء[72]؛ ومن ثمّ كان لا بدّ من زيادة عدد المؤسسات التعليمية. غير أنّ ذلك، ولسبب غير واضح، لم يتمّ إلا بعد عشر سنوات من افتتاح المدرسة الأولى؛ إذ افتتحت مدرسة ابتدائية في حيّ السليمية/ الجميلية خارج أسوار المدينة القديمة عام 1902 بعد حفل رسمي حضره كبار الأعيان والموظفين والضباط[73]. وقد جعلت مصارف هذه المدرسة من ضريبة "الذبحية" التي كانت تؤخذ على كل شاة أو معزاة أو بقرة تذبح[74]، وكانت هذه الضريبة سابقًا تُغطّي احتياجات اللاجئين من جزيرة كريت[75].

ومع التسارع المتزايد لوتيرة تطوّر التعليم الرسمي للذكور في حلب على مختلف مستوياته، ظلّ مستوى تطوّر التعليم الرسمي للبنات بطيئًا جدًّا، حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى على الأقل؛ إذ لم تؤسّس في حلب خلال أكثر من عشر سنوات سوى مدرسة حديقة العرفان في حي الفرافرة ثم مدرسة السقّاحية الابتدائيّتين[76].

وبعد اندلاع الحرب العالمية، افتُتحت ثلاث مدارس ابتدائية رسمية للبنات على مستوى حلب وأقضيتها عام 1915[77]، وشهدت المدينة كذلك افتتاح عدة حضانات للأطفال تحت إدارة طاقم نسائي، لكنّها أُلغيت لاحقًا قبيل انتهاء الحرب[78].

وظلّت كفّة مدارس الطوائف والإرساليات راجحة في حلب بسبب أفضلية الدعم الخارجي والفارق الكبير في الميزانية بينها وبين المدارس الرسمية. فبحلول القرن العشرين أُحصي أكثر من عشر مدارس للبنات على مستويات مختلفة، منها: مدرسة الروم الأرثوذكس الابتدائية والرشدية، ومدرسة الروم الكاثوليك الابتدائية، ومدرسة الأرمن الابتدائية، ومدرسة الأرمن الرشدية، ومدرسة البروتستانت الابتدائية والرشدية، ومدرسة البروتستانت المختلطة، ومدرسة الشركة الموسوية الرشدية[79]، ومدرسة الجزويت الفرنسية الرشدية، ومدرسة ترسانتا الرشدية[80]، إضافة إلى مدارس الراهبات: القديس يوسف، والقلبين الأقدسَين، والحبل بلا دنس للأرمن الكاثوليك،

70 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.153/144.

71 عائشة الدباغ، **الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين** (بيروت: دار الفكر، 1972)، ص 114.

72 **سالنامهء ولايت حلب** (حلب: مطبعة الولاية، 1308هـ/ 1890م)، ص 247.

73 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.622/40.

74 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.1027/13.

75 الغزّي، مج 3، ص 342.

76 مقارنة بجداول المدارس الابتدائية في أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم التدريسات الابتدائية في نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.İBT.487/61, & COA, MF.İBT.457/14.

77 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق مديرية الأمور المحلّية والولايات في نظارة الداخلية، تصنيف: COA, DH.UMVM.83/10.

78 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.1228/83.

79 **سالنامهء ولايت حلب** (حلب: مطبعة الولاية، 1321هـ/ 1903م)، ص 145.

80 **سالنامهء نظارت معارف عموميه (1321هـ/ 1903م)**، ص 467.

وراهبات مار يوسف نواة مدرسة جان دارك التي دشّنت عام 1910، بينما افتتحت عام 1912 المدرسة الألمانية المختلطة[81]، وأسست راهبات الفرانسيسكان ميتمًا ومشغلًا للبنات عام 1913. وأخيرًا، أُسّست المدرسة المارونية للبنات عام 1914 وأغلقت في أثناء الحرب[82].

ويبقى التطوّر الأبرز على الإطلاق في حلب، بل على مستوى سورية، هو افتتاح دار للمعلّمات عام 1915 بمساعي الحاكم العسكري جمال باشا، وذلك قبل سنة من افتتاح دار المعلمين، وبالطبع قبل افتتاح دار للمعلّمات في دمشق بسنين عديدة. وهي أوّل دار للمعلّمات، وآخر هذا النوع من المدارس، تؤسّس في المشرق العربي العثماني. وقد لقيت إقبالًا كبيرًا من الأهالي لتسجيل بناتهم فيها، بل إنها تلقّت لاحقًا طلبات من ولايات مجاورة. وعلى الرغم من تفكّك كادرها التعليمي بعد انتهاء الحرب وعودة أغلب أفراده إلى إسطنبول، فإنها استمرّت بوصفها مؤسسة طوال سنوات عديدة في عهد الانتداب، وأصبح موقعها لاحقًا مقرّ ثانوية معاوية للإناث التي ما زالت قائمة إلى يومنا هذا[83].

3. حمص

بعد إعلان قانون الولايات عام 1864، حُدِّدت مدينة حمص بوصفها مركزًا للواء حمص داخل ولاية سورية. ثم قُرّر عام 1867 أن تكون هي وحماة لواءً واحدًا يكون مركزه حماة، وأن تكون حمص قضاءً ضمن هذا اللواء[84]، وقد ظلّت هذه التشكيلات على حالها حتى نهاية العهد العثماني[85].

كانت حمص مع بداية العهد الحميدي (1876) في وضع مشابه لحلب، خالية من مؤسسات التعليم الرسمية، ما عدا مدرسة رشدية للذكور اتخذت من غرفة في إحدى ملحقات الجامع النوري الكبير مقرًّا لها[86]. ولذا، كان النمط السائد للتعليم في حمص هو التعليم الأهلي التقليدي القائم على كتاتيب الجوامع والمساجد والزوايا والكنائس، والمدرّسين الخصوصيين في بيوتهم أو محالّهم التجارية، وذلك يشمل الذكور والبنات من المسلمين، وكذلك المسيحيين الذين تقترب نسبتهم في المدينة من الربع[87]. ولكن حدث استثناء واحد عام 1864 متمثّل في تأسيس مدرسة البروتستانت الإنجيلية في إطار إدارة البعثة الأميركية التبشيرية. وقد ضمّت هذه المدرسة قسمًا للذكور وآخر للبنات، فكانت أول مؤسسة حديثة تُعنى بتدريس البنات في حمص[88].

وقُبيل تسلّم الوالي الإصلاحي مدحت باشا، تأسّست في حمص عام 1878 جمعية خيرية أهلية أرثوذكسية تُعنى بمدارس الطائفة، وتمكّنت هذه الجمعية من تطوير إحدى كتاتيب البنات المرتبطة بالكنيسة، لتصبح مدرسة نظامية أسوةً بمدرسة البروتستانت[89].

81 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق غرفة الأوراق في الباب العالي، تصنيف: COA, BEO.4027/301983.

82 الغزّي، مج 2، ص 390.

83 فاضل بيات، **المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني: دراسة تاريخية إحصائية في ضوء الوثائق العثمانية** (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - إرسيكا، 2013)، ص 456-459.

84 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق إرادات مجلس والاى (المجلس الأعلى)، تصنيف: COA, İ.MVL.582/26155.

85 **سالنامهء دولت عليه عثمانيه [حولية الدولة العلية العثمانية]** (در سعادت: المطبعة العامرة، 1284هـ/ 1867م، 1285هـ/ 1868م).

86 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.568/5.

87 **سالنامهء ولايت سوريه (1299هـ/ 1882م)**، ملحق ص 294-295؛ قارن بإحصاءات قديمة من عام 1849م في أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، دفاتر النفوس: COA, NFS.d.3750/15.

88 استقلّت مدرسة البنات عام 1874. ينظر: **سالنامهء نظارت معارف عموميه (1321هـ/ 1903م)**، ص 538.

89 رزق الله نعمة الله عبّود، **تذكار اليوبيل لسيادة الحبر الجليل اثناسيوس عطالله ميتروبوليت حمص وتوابعها للروم الأرثوذكس** (حمص: مطبعة حمص، 1911)، ص 78-79.

وبقدوم مدحت باشا وإيعازه بتأسيس الجمعيات الخيرية للمعارف في مختلف مدن ولاية سورية، تشكّلت في حمص جمعية خيرية أهلية ترأسها مصطفى الحسيني، الباشا لاحقًا، (1827-1903)، وقد نجحت في تأسيس أول مدرستين ابتدائيتين نظاميتين للذكور في حمص ضمن أبنية جامعيّ "الزاوية" و"ذي الكلاع"[90]. غير أنّ هاتَين المدرستَين تعطّلتا بعد عام واحد بسبب عدم قدرة الجمعية الخيرية على تأمين رواتب الأساتذة[91]، فأعيد تشكيل الجمعية مرة أخرى بمساعٍ أهلية ليتمّ تدارك الموازنة المالية وتأمين استدامة المدرستين[92]، ثم اتّجهت الجمعية نحو المأسسة في نهاية عام 1882 لتصبح "مجلس معارف حمص"[93].

ونرصد في حولية ولاية سورية لعام 1883 محاولة محدودة لتأسيس مدرسة بنات في حمص مؤلّفة من شعبتين ضمّتا 110 طالبات، فسبقت بذلك حماة وحلب. غير أنّ هذه المدرسة لم تستمرّ في العام التالي لسبب مجهول[94].

وظلّت قضية تعليم البنات في حمص معلّقة أكثر من سبع سنوات، أي حتى عام 1890. وقد تحسّن الواقع التعليمي للبنات مع انضمام يحيى سعيد الأتاسي (توفي عام 1914)، وهو رجل علم وكاتب وصحافي ذو خلفيّة دينيّة، إلى مجلس المعارف مطلع ذلك العام بوظيفة مفتّش وكاتب؛ إذ اجتهد في تطوير أوّل مدرسة بنات رسمية في حمص لترقى إلى مستوى المدارس الحديثة، بعد أن كانت المدرسة قد تأسست رسميًّا على نمط الكتّاب التقليدي عام 1888[95]، وذلك بالتزامن مع جهوده في تأسيس مدرسة ثالثة للذكور[96]. ثم سعى لتطوير مدرسة البنات فانتدب لها من بيروت معلمة متخصصة. وأعاد السفر إلى بيروت واتفق مع معلمة أخرى من أجل افتتاح مدرسة ثانية للبنات، وسخّر قلمه في الصحف دعمًا لقضية تعليم البنات في حمص[97].

غير أنّ التعليم في حمص أصابه ضرر جسيم تجلّى في إلغاء ضريبة "الذبحية" المفروضة على الجزّارين، وقد كانت المورد المالي الأول للمدارس الرسمية، فأدى ذلك إلى توقّف مدارس الذكور في صيف عام 1893[98]، وإغلاق مدرسة البنات وعودة معلّماتها إلى بيروت في أواخر العام المذكور[99]. وقد استطاع مجلس المعارف المحلّي تدارك ميزانية مدرستين فقط من مدارس الذكور، بيد أنه لم يقدر على تحمّل ميزانية مدرسة البنات، فظلّت مغلقة ثلاث سنوات، إلى أن أنشأ المجلس عدة أكشاك تجارية يذهب ريعها إلى هذه المدرسة، فنجح في إعادة افتتاحها عام 1896[100] بالتزامن مع ترخيص مدرسة الأيتام[101].

ومع جهود شخصية من مقدّم فرسان المدفعية في حمص خيري بيك وتأسيسه مدرسة ابتدائية للذكور سمّيت باسمه، وتسلّمه لاحقًا رئاسة مجلس المعارف، ارتفعت واردات صندوق المعارف أكثر من ثلاثة أضعاف[102]. لكن يبدو أنّ ارتفاع هذه الواردات أحدث

90 **سالنامهء ولايت سوريه (1298هـ/ 1881م)**، ص 266.

91 عبد القادر قباني، "تأسف واستغراب"، **ثمرات الفنون**، العدد 337، 1881/6/27، ص 1.

92 مراسل ثمرات الفنون، "حمص في 28 الماضي"، **ثمرات الفنون**، العدد 342، 1881/8/1، ص 4.

93 مراسل ثمرات الفنون، "حمص في 7 صفر"، **ثمرات الفنون**، العدد 409، 1882/12/20، ص 4.

94 **سالنامهء ولايت سوريه (1300هـ/ 1883م)**، ص 229.

95 داوود قسطنطين الخوري، "المعارف في حمص"، جريدة **حمص**، العدد 14، 1914/3/28، ص 1.

96 مراسل لسان الحال، "حمص - ومنها في 19"، **جريدة لسان الحال**، العدد 1227، 1890/4/28، ص 3.

97 ومن أمثلة ذلك: يحيى سعيد الأتاسي، رد على مقالة "ذات الخدر"، **ثمرات الفنون**، العدد 824، 1891/3/2، ص 2؛ يحيى سعيد الأتاسي، "حمص في 19 ربيع الثاني 311"، **ثمرات الفنون**، العدد 953، 1893/11/6، ص 2.

98 يحيى سعيد الأتاسي، "شجرة العاشق"، **ثمرات الفنون**، العدد 939، 1893/7/31، ص 2.

99 الأتاسي، "حمص في 19 ربيع الثاني 311"، ص 2.

100 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.366/37.1.

101 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم التدريسات الابتدائية في نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.İBT.50.26.

102 صاحب الإمضاء م. ن، "حمص في 10 الجاري"، **ثمرات الفنون**، العدد 1539، 1905/11/20، ص 6.

نزاعًا محليًّا ذا بُعد اجتماعي، كان محوره مدرسة البنات ومعلّماتها، وهو ما أثّر سلبيًّا في العملية التعليمية في المدينة؛ إذ امتدّ إلى إدارة المعارف المركزية للولاية في دمشق، وكان من نتائجه إلغاء مجلس المعارف في حمص كليًّا[103].

أعيد تأسيس مجلس المعارف، مرة أخرى، بعد الثورة الدستورية عام 1908، وجرى الاتفاق بينه وبين البلدية على تأسيس مدرسة رشدية للبنات، وحصلت المباحثات فعلًا في صيف عام 1914 مع متخرّجة في المدرسة الأميركية ببيروت لإدارتها، تعاونها في ذلك أستاذة من خرّيجات المدرسة الرشدية بصيدا، مع معلمة ثالثة للغة الفرنسية[104]. غير أنّ هذا القرار لم ينفّذ بسبب اندلاع الحرب العالمية بعد فترة قصيرة. ومع ذلك، ظلّت مدرسة البنات الابتدائية الرسمية هي المدرسة الوحيدة القائمة طوال تلك الفترة، بل حتى خلال الحرب العالمية، ثمّ في العهدَين الفيصلي والانتدابي، وأطلق عليها في ثلاثينيات القرن العشرين اسم "المروانية"، وما زالت قائمة إلى يومنا هذا[105].

أما المجال الأهلي، فقد كان مجالًا مفتوحًا لطوائف المجتمع المسيحي الحمصي تتنافس فيه على تشييد المدارس وتطويرها، في غياب شبه تامٍّ لأيّ جهود من المجتمع المسلم خارج الإطار التقليدي (الكتّاب) والإطار الرسمي (المدرسة الابتدائية) على صعيد تعليم البنات. وقد طغت الصبغة الدينية والطائفية على المدارس الأهلية، غير أنها لم تكن حكرًا على أبناء الطائفة؛ إذ كانت الشريحة المستهدفة للإرساليات أطفال الطوائف والأديان الأخرى[106].

وبالنسبة إلى الطائفة الأرثوذكسية التي شكّلت الأغلبية المسيحية في حمص، كرّس المطران الجديد أثناسيوس عطا الله منذ تنصيبه عام 1886 أغلب جهوده لرفع مستوى التعليم ضمن مؤسسات الطائفة. ولذلك، طوّر مدرسة البنات الأرثوذكسية التي تأسّست عام 1878، فافتتح لها شعبة إضافية[107]، وعيّن معلّمات أخريات حديثات التخرّج، ثم نجح في تأمين دعمٍ ماليٍّ من الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الروسية لمدرسة البنات، ليتم إنشاء مبنى جديد لها عام 1902 بمساندة المجتمع المحلّي وإشراف الأعيان؛ ما أدى إلى ازدياد عدد الطالبات أكثر من ثمانية أضعاف[108]. وقد تزامن ذلك مع تأسيس أول جمعية نسائية في حمص عام 1897 في إطار الطائفة، وهي جمعية "نور العفاف" التي ضمّت متخرّجات مدارس البنات الأرثوذكسية الناشطات في العمل الخيري[109]، ثم تأسيس "جمعية تربية اليتامى" والميتم الخاص بها عام 1904 لرعاية وتدريس اليتيمات اللواتي فقدن ذويهنّ في وباء الكوليرا عام 1903[110]. وقُبَيل اندلاع الحرب الكبرى عام 1914، كان الأرثوذكس قد افتتحوا مدرستين إضافيّتين للبنات في حيَّي الحميدية وباب السباع[111].

أمّا الطائفة البروتستانتية التي اعتنت بتعليم البنات منذ منتصف القرن التاسع عشر، كما أسلفنا، فقد طوّرت مدرستها القديمة على نحو مستمرّ، إلى أن نجح التاجر رفّول ناصر ومعاونه الأستاذ حنّا خباز في تحويلها إلى مدرسة أهلية وطنية بعيدًا عن دعم المجمع

103 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.889/24.

104 مراسل لسان الحال، "حمص في 9 حزيران"، **جريدة لسان الحال**، العدد 7571، 1914/6/12، ص 3.

105 رضا صافي، **على جناح الذكرى**، ج 1 (دمشق: وزارة الثقافة، 1982)، ص 259.

106 William Smeal & Robert Smeal, *The British Friend*, vol. XXVI, no. XL (November 2, 1868), p. 274.

107 **سالنامهء نظارت معارف عموميه (1321ه/ 1903م)**، ص 537.

108 المرجع نفسه، ص 89.

109 المرجع نفسه، ص 108.

110 المرجع نفسه، ص 107-108.

111 داوود قسطنطين الخوري، "المعارف في حمص2-"، **حمص**، العدد 15، 1914/4/4، ص 1.

المشيخي الأميركي بعد جهود استمرت عدّة سنوات؛ إذ استأجر دارًا لمدرسة البنات من ماله الخاص، ثمّ أُنشئ المبنى الجديد للكلية الإنجيلية الوطنية في حيّ باب السباع[112].

وقد أسّس مبشّرون من الطائفة اليسوعية قَدِموا إلى حمص، في ثمانينيات القرن التاسع عشر، مدرستين إحداهما للبنات، وهي مدرسة راهبات القلبين الأقدسين[113]. ثم أسّسوا في تسعينيات القرن مدرسة "ماربولس" في باب السباع، ومدرسة "قلب يسوع" في الحميدية، وفي كلّ منهما قسم للبنات[114].

رابعًا: تعليم البنات والمجتمع المحلّي بين الدوافع والعثرات

1. العهد الحميدي

بالنظر إلى السياق التاريخي في المدن الثلاث، يتّضح أنّ فكرة تعليم البنات بنظامه العصري تشكّلت مع دخول الإرساليات التبشيرية التي كانت لها المحاولات الأولى في هذا المجال؛ إذ إنّ أنماط التعليم التي سبقت ذلك العهد كانت مقتصرة على المؤسسات التقليدية.

وباستحداث الإرساليات مؤسسات حديثة ومستقلّة لتعليم البنات، كُسر حاجز الرهبة الأول في المجتمع تجاه هذا الموضوع، مع أدنى حدّ من التقبّل وأعلى درجة من الارتياب. أما الدولة، فقد تخوّفت جدّيًّا من انتشار الإرساليات في مختلف مناطق السلطنة، فتحرّكت على نحو جدّي مع بدايات العهد الحميدي، وكانت ردّة فعلها الإيعاز بتأسيس الجمعيات الخيرية التي ستعنى بافتتاح المدارس النظامية الجديدة، والتأسيس لنظام تعليمي وطني عثماني في مواجهة مدّ الإرساليات التبشيرية المرتبطة بدول أجنبية "معادية للدولة"[115].

تلقّت طبقة الأعيان توجيهات رسمية بتأسيس مدارس نظامية للبنات. ولأن هذه الطبقة في مختلف المدن السورية تكوّنت أساسًا من علماء الشرع، فقد أُضفي على تحرّكها لتأسيس المدارس قبولٌ نسبيّ لدى المجتمع المحلّي، مستمدة شرعيتها من الدولة. وعملت هذه الطبقة ضمن الهامش الضيّق بين حدّ الرضا المجتمعي والتوجيهات الرسمية؛ فكانت تحرّكاتها الأولى محدودة بطبيعة الحال. ومن الممكن تقييم تحرّك بعض عناصر المجتمع المحلي نحو دعم تعليم البنات على مدى السنوات اللاحقة بوصفه نوعًا من ردّة الفعل تجاه الحركة التبشيرية. ويعيدنا ذلك إلى قصة تأسيس "المدرسة اليوسفية" الأهلية للبنات في دمشق؛ إذ شاهد مؤسسها الحاج يوسف بيضون ابنتين مسلمتين في حيّ الخراب (الأمين) تصلّبان على صدريهما كما تفعل المسيحيات، وذلك لأنهما درستا في المدرسة الإنكليزية، فساءه ذلك وسعى لتأسيس مدرسة للبنات المسلمات[116].

لم تكن ردة الفعل مقتصرة على المجتمع المسلم فحسب؛ إذ إنّ المجتمع المسيحي المحلّي تحرّك على نحو أسرع بناءً على تأثير الإرساليات، للمحافظة على تماسك الطائفة أساسًا. ويمكن ملاحظة هذه المنافسة في حمص مثلًا؛ فقد كانت مدرسة البروتستانت في ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته تدرّس علومًا لم تكن قد وصلت إلى مدارس الأرثوذكس الذين سيجبرون على رفع سوية التعليم

112 رفّول ناصر، **تاريخ كلية حمص الوطنية الإنجيلية** (حمص: المطبعة الجديدة، 1928)، ص 22-40.

113 نعمة الله عبّود، ص 79.

114 داوود قسطنطين الخوري، "المعارف في حمص-2"، **حمص**، العدد 15، 1914/4/4، ص 1.

115 بيات، ص 41-46.

116 أباظة، ص 147.

في مدارسهم. وحينما أسّس الجزويت مدرستهم عام 1882 وأقبل الطلاب عليها من أجل تعلّم اللغة الفرنسية، اضطرت لجنة المدارس الأرثوذكسية إلى استحضار معلّم لتدريس الفرنسية في مدارسها[117].

ولأنّ التحرّكات الأولى للمجتمع تجاه تأسيس مدارس البنات كانت عبارة عن ردّة فعلٍ، أي إنها ارتداد رئيس، فمن الطبيعي أن تؤدّي المواجهة الأولى للعادات والتقاليد ضمن المجتمع السوري المغلق إلى ارتداد ثانوي تمثّل في عناصر أخرى من المجتمع تعارض التحركات الأولى.

وفي حين أنّ المجتمع المسلم في حلب ودمشق كانت لديه إمكانية الحصول الدعم الحكومي للمدارس الرسمية، مما جعل المداولة في موضوع تعليم البنات محصورة، في أغلب أشكالها، في طبقة الأعيان الذين تسلّموا إدارة مجالس المعارف ومواردها المالية، كان غياب الدعم الحكومي الجدّي في حمص، التي كانت مصنّفةً بوصفها قضاءً، مدعاةً لأعيان ووجهاء آخرين أقلّ شأنًا للمداولة في موضوع مدرسة البنات، خصوصًا أنّ سدّ الفراغ الذي تركته الدولة في المجال التعليمي وقع على عاتق المجتمع المحلّي، ونجح في ذلك نسبيًا[118].

واللافت للانتباه أنّ المجتمع المسلم، في المدن/ النماذج الثلاثة، ركّز على دعم المؤسسات الرسمية لتعليم البنات، وذلك حتى نهاية العقد الأول من القرن العشرين على الأقل، في حين لم يلتفت المسيحيون واليهود إلى مدارس الدولة، بل اعتبروها خاصّة بالمسلمين، على الرغم من أنّها قانونيًا متاحة لجميع الأديان والطوائف. وبدلًا من ذلك، ركّزت الطوائف على دعم مؤسساتها التعليمية الخاصة.

وتجلّى مظهر مثيرٌ للاهتمام للارتدادات المجتمعية في حمص؛ إذ بدت ملامح توتّر بين "العلماء التقليديين" و"العلماء الإصلاحيين"، في مشهد مشابه لصدامهم في دمشق، لكن ذلك قد كان بحدّة أقلّ[119]، وكان محور هذا التوتر مدارس البنات وتعليمهنّ.

لقد دعا مفتش المعارف يحيى الأتاسي في مقالاته الصحافية إلى الاهتمام بتعليم البنات، ونوّه أكثر من مرّة بمشكلات مدرستهنّ في حمص التي نهض شخصيًّا بأعباء تأسيسها[120]. وسيدعو مواطنه وصديقه المقرّب، المفكّر الإصلاحي عبد الحميد الزهراوي (1871-1916)، الذي واجه علماء دمشق التقليديين على خلفية مؤلّفه الثوري "الفقه والتصوّف"، ثمّ في مؤلّفه النوعي "خديجة أم المؤمنين" و"إقامة حقوق المرأة وكرامتها وآدابها"، وسيطلب من المجتمع أن "يهذب بالعلم الأمهات، ويسعى لترقية مداركهنّ وآدابهنّ"[121].

من ناحية أخرى، وفي الفترة نفسها، كتب المعلّم والشيخ سليمان الكيّالي الرفاعي (1846-1914)، ممثّل التيار التقليدي، رسالة عن التعليم عام 1891، أي بعد عام واحد من تأسيس مدرسة البنات، أورد فيها أنّ تعليم النساء الكتابة منهيّ عنه، وقد "يؤدي إلى مفسدة، ودرء المفاسد مقدّم على المصالح"، فيما يمكن اعتباره ردّة فعلٍ على الجهود الهادفة إلى تأسيس مدرسة البنات في حمص. وقد أصرّ

117 نعمة الله عبّود، ص 78-79.

118 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، عريضة بعض أعيان حمص يلتمسون فيها استبدال المعلّمة صفيّة خانم، تصنيف: COA, MF.MKT.922.71/2.

119 للمزيد عن صدام العلماء الإصلاحيين والتقليديين في دمشق، ينظر: حسّان القالش، **سياسة علماء دمشق: أسئلة الإصلاح والهوية والعروبة (1516-1916)** (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2024).

120 يحيى سعيد الأتاسي، رد على مقالة "ذات الخدر"، **ثمرات الفنون**، العدد 824، 1891/3/2، ص 2؛ يحيى سعيد الأتاسي، "حمص في 19 ربيع الثاني 311"، **ثمرات الفنون**، العدد 953، 1893/11/6، ص 2.

121 عبد الحميد الزهراوي، **خديجة أم المؤمنين** (القاهرة: مطبعة المنار، 1910)، ص 8.

المؤلِّف على رأيه، على الرغم من إيراده حديثًا نبويًا يبيح تعلّم الكتابة للنساء، بل يحضّ على الاستزادة من العلم لهنّ[122]؛ إذ ارتأى أنّ الحديث ينصّ على جواز تعلّم الكتابة، وأنّ هذه الإباحة مقتصرة على "النساء الصالحات اللواتي لا تخشى عليهنّ شيء من المفاسد"[123].

واستطرد: "أقول والحالة هذه لو اقتضى الأمر بأن جعلت مكاتب البنات لتعليمهنّ القراءة الشريفة اللازمة في المصحف الشريف مع إتقانه بأحكام التجويد والأداء، وبعد أحكام العبادة المفروضة ونحوها لتصحيح عبادتهنّ، ثم أمور السبب في المعيشة اللازمة لهنّ، كالخياطة ونحوها، وترك الكتابة، وذلك احترازًا من وقوعهنّ بشيء من فساد وضرر، وإن هذا العصر قد كثر فيه الفساد بين العباد"[124].

اندلع، لاحقًا، خلاف شديد عام 1905 بين شريحة من الأهالي في حمص وإدارة التعليم المركزية في دمشق في إثر قرار الأخيرة عزل معلّمتَي المدرسة حفيظة وميمونة وتعيين معلمة واحدة صفية بدلًا منهما. ومن وجهة نظر الإدارة في دمشق، كان وجود المعلّمتين غير الدارستين غير المتخصّصتين مثل عدمه؛ فقد وُصِفتا بأنهما مثل بقية معلّمات الكتاتيب القديمة: "مؤمنتان بالأساطير ومتّصفتان بسوء الخلق والحسد والنميمة"[125]. أما المعلّمة الجديدة، فكانت متخرجة في رشدية دمشق ومتّصفة بالكفاءة، وقد وضعت وجهة النظر هذه ضمن سياق مواجهة مؤسسات التعليم الوطني ضدّ المؤسسات الأجنبية[126]. وأما الأهالي، فقد هدّدوا بإخراج بناتهم من المدرسة، وقد نفّذ بعضهم هذا التهديد، في حين رفع آخرون عرائض إلى الإدارة المركزية للتعليم في العاصمة إسطنبول، ووجّهوا إلى المعلّمة الجديدة تهمًا تضرّ بسمعتها بوصفها معلّمة وامرأة، وصلت إلى القول بتوجيه الطالبات نحو الشذوذ الجنسي؛ إذ ذكر بعض الأهالي في إحدى عرائضهم: "إن المذكورة صفية خانم علّمت بنات وطننا السحاق؛ تلك الرذيلة الكريهة والقذرة التي لم نعهدها من قبل [...] ولا شكّ في أن بناتنا سيلعنّ من كان سببًا في هذه البدعة الخبيثة إلى آخر العمر"[127].

ولكن بعد تتبع شبكة العلاقات في حمص، وجدنا أنّ المعلّمة حفيظة كانت الزوجة الجديدة لإمام الطابور العسكري ومفتش المعارف وهبي أفندي، الذي تعرّف إليها بعد تردّده الدائم على مدرسة البنات بحجة التفتيش، بحسب التقرير الرسمي لإدارة المعارف[128]. وقد كان المذكور مقرّبًا من بعض المتنفّذين المحلّيين في حمص؛ إذ نجد أنّ الموقّعين على العرائض الداعمة لزوجته تنوّعوا بين مشايخ الطرق والأئمة والمدرّسين الشرعيين والتجار، غير أنّهم - بلا شكّ - لم يكونوا من أعيان الطبقة الأولى[129].

وعلى كل حال، كان قرار الإدارة في دمشق إبعاد زوجته عن المدرسة مقدمةً لإبعاده هو أيضًا، أي وهبي، عن حمص، بعد أن اتُّهم بعدم الأهلية، فضلًا عن تُهمٍ أخرى لا تقلّ عن التُّهم التي وُجّهت إلى المعلّمة الجديدة.

غير أنّ وجود مشايخ الطرق على وجه التحديد بين الموقّعين الداعمين لوهبي يثير التساؤل عن طبيعة هذا النزاع. ثم نكتشف، بعد نظرة أوسع، أنّ التحركات ضدّ المعلّمتين لم تكن إلا تحركات ضدّ رئيس مجلس المعارف ومفتش الأوقاف المقدّم خيري بك، الذي اعتبر لدى فئة من الأعيان غريبًا عن حمص، أو ربّما مضرًّا بمصالحهم. ولذلك، جرى التخلّص في البداية من ذراعه وهبي

122 وهو حديث الشفاء بنت عبد الله؛ حين دخل عليها النبيّ صلى الله عليه وسلّم، وهي عند زوجته حفصة، فقال لحفصة: "ألا تُعلّمين هذه رُقية النملة كما علّمتِها الكتابة". حديث صحيح أخرجه أبو داوود (3887) وأحمد (27095).

123 سليم الزهراوي، ص 29-30.

124 المرجع نفسه.

125 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.922/71.18.

126 المرجع نفسه.

127 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.922/71.14.

128 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.922/71.18.

129 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.922/71.13.

أفندي، المنتمي أيضًا إلى المؤسسة العسكرية، ثم إبعاد خيري بك عن المعارف، وعن الأوقاف أيضًا، التي يُعتقد أنّها المحور الرئيس والخفي في هذا النزاع[130].

2. عهد الاتحاد والترقّي

في المرحلة الجديدة من تاريخ المنطقة، أي بعد إعادة تفعيل الدستور العثماني عام 1908، ثم إسقاط السلطان عبد الحميد الثاني (1842-1918، حكم في الفترة 1876-1909) عام 1909، أخذت سلطة حزب "الاتحاد والترقّي" تتزايد، وتزامن ذلك مع صعود التيار العروبي في مواجهته. ومع النزعة السلطوية التي أخذت منحًى راديكاليًا متصاعدًا لدى الاتحاديين بالنسبة إلى السياسيات الداخلية، توسّعت المواجهة مع العروبيين من المجلس النيابي إلى ميدانَي الصحافة والتعليم[131]، وأضحى التنافس على أدلجة المدارس جزءًا أساسيًّا من هذا النزاع، خصوصًا مع الأزمة المتمثّلة في جعل التركية لغة التعليم الرسمية في مدارس البلاد العربية[132]. ولذلك، ستشهد قضية تعليم البنات تحوّلًا جوهريًّا في دوافع التأسيس ودعم المدارس، من ردّات فعلٍ اجتماعية إلى ردّات فعلٍ ومؤثرات سياسية.

وسيظهر هذا التحوّل جليًّا بقدوم جمال باشا إلى سورية حاكمًا عسكريًّا خلال الحرب العالمية الأولى. ولعلّ الباشا سيستغل قضية تعليم البنات في غاياته السياسية، الشخصية منها والدولتية، ضمن ما يُعتقد أنّه خطة واسعة تهدف إلى إعادة هيكلة التعليم في سورية و"عثمنته". وقد تضمّنت هذه الخطة عدة محاورة متعلّقة بالنظام العسكري والمشاريع الإنشائية والصحية، لكنها بدأت على الجانب التعليمي، عبر إغلاق الإرساليات ومدارس الطوائف المدعومة من الدول الأجنبية المعادية ووضع اليد عليها. ثم إنه شرع في العمل على تأسيس مدارس عثمانية بديلة تكون على المستوى العلمي نفسه.

ففي دمشق، أسّس "ثانوية جمال باشا"، واعتمد في خطته لتطوير تعليم البنات بدمشق على الأستاذة **خالدة أديب** (1884-1964) التي بذل جهودًا كبيرة لإقناعها بالقدوم إلى سورية للعمل مستشارة تعليمية له. وقد قدّمت أديب فعلًا إلى دمشق في أوائل عام 1917، بعد زيارة سابقة قصيرة، برفقة 45 معلّمة وُزّعت على مختلف مناطق سورية ولبنان لسدّ الفراغ الذي أحدثه إغلاق المدارس الفرنسية[133].

ركّزت أديب جهودها في دمشق لافتتاح ثانوية ليلية أشرفت عليها سبع معلّمات تركيّات وستّ معلّمات عربيات، واتخذت قصر زيوار باشا في الصالحية مقرًّا لها، بينما ضغط الباشا على الموظفين والضباط الأتراك في سورية لتسجيل بناتهم في هذه المدرسة[134].

وفي حلب، افتتحت، بمساعي جمال باشا، دار المعلّمات عام 1915، وأطلق عليها اسم "سليمان الحلبي" في إشارة إلى الصراع الدائر مع قوات الحلفاء وأملًا في تحرير مصر من قبضة الإنكليز عبر معارك قناة السويس (الترعة) بين الجيش العثماني والجيش

130 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.922/71.3.

131 على سبيل المثال، ينظر: شكري العسلي، "تعالوا نندب الحرية"، **جريدة المقتبس**، العدد 931، 1912/3/17، ص 2؛ شكري العسلي، "توفيق بك المجالي"، **جريدة المقتبس**، العدد 911، 1912/2/22، ص 1؛ ينظر أيضًا مجموع مقالات عبد الحميد الزهراوي في الصحف، وخصوصًا مجموعة "تربيتنا السياسية"؛ مجموعة مقالات بتوقيع "س"؛ **الإرث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي**، جمعه وحقّقه جودة الركابي وجميل سلطان (دمشق: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، 1963).

132 من الأمثلة الدالة على ذلك: زيارة الاتحادي عبد الرحمن باشا اليوسف لمدرسة "الاتحاد الوطني" في حمص وتبرّعه براتب سنوي، بمعية حليف الاتحاديين في حمص عبد الحميد باشا الدروبي. وفي المقابل، زيارة مرشّح الائتلافيين لطفي بك إلى المدرسة العلمية في حمص، وكان في استقباله عدد من حلفاء الائتلافيين؛ ينظر أيضًا: المخلص ع. ص، "لطفي فكري بك في محطة حمص"، **جريدة الحقيقة**، العدد 420، 1912/2/19، ص 2-3؛ عبد الحميد الحراكي، "الاعتراف بالفضل والكرم اليوسفي"، **حمص**، السنة الثالثة، العدد 21، 1912/4/6، ص 329.

133 M. Talha Çiçek, *Cemal Paşa Suriye'de: Birinci Dünya Savaşı Yılları* [**جمال باشا في سورية: سنوات الحرب العالمية الأولى**] (Istanbul: Kronik Kitap, 2020), pp. 308-311.

134 المرجع نفسه.

البريطاني. واتّخذت من دار في حي السفّاحية، ولاحقًا دار الوالي في حيّ الجميلية، مقرًّا لها[135]. وحظيت هذه الدار بميزانية جيدة وكادر متقدّم وتجهيزات حديثة (خطّ هاتف خاص مثلًا)[136]. وألحق بها قسم تطبيقات[137]، وقسم لمعلّمات رياض الأطفال[138]، وقُرّر لها عام 1916 إنشاء قسم ليلي ودور للمنامة[139]، في حين منعت نظارة المعارف وضع يد الجيش العثماني عليها واتّخاذها مستشفًى عسكريًّا كما حصل في العديد من المدارس في أثناء الحرب[140].

وقد حصلت هذه الدار على أفضل برنامج تدريسي بين المؤسسات الرسمية؛ إذ تضمّن البرنامج الرسمي للمدارس الرشدية مع إضافة دروس قواعد اللغة العثمانية ومنتخباتها، والكتابة وتطبيق القواعد، وأصول التدريس، والهندسة، والرسم، والموسيقى[141]. وتبعًا لظروف الحرب العالمية وتحالف العثمانيين مع الألمان أضيف درس اللغة الألمانية إلى المنهاج[142].

كانت غايةُ جمال باشا من افتتاح ثانوية دمشق تعليمَ نساء سورية العربيّات اللغةَ التركية وتعزيزَ ارتباطهنّ بالدولة العثمانية وكسب تعاطف الأهالي، بينما افتتحت دار المعلّمات في حلب لإعداد كادر تعليمي جديد يضمن تطبيق أجندة نظام التعليم الجماهيري المتصوّر. وكلّ ذلك كان في فترة شهدت نشاطاً أولى الجمعيات النسائية في دمشق برعاية السلطة الاتحادية: جمعية نساء المعاونة الشعبية، وجمعية نساء المعاونة الخيرية، اللتان ضمّتا مجموعة من زوجات أعيان دمشق وكبار الضباط الأتراك، ونشطتا في تأسيس المستشفيات العسكرية وتأمين الدعم المالي واللوجستي لتشكيلات الجيش العثماني في أثناء الحرب[143]. وكانت غايةُ الباشا الأولى من دعم كلّ تلك النشاطات الظهورَ بمظهر "باني سورية الحديثة" بعد إعدامه مفكّرين من العرب في دمشق وبيروت[144].

خامسًا: الإقبال مؤشّرًا للفاعلية والتأثير الاجتماعي

يمكن قياس نسبة الإقبال على مدارس البنات في أواخر العهد العثماني من خلال الاطلاع على الحوليات السنوية التي كانت إدارة الولايات تعمل على طبعها سنويًّا. ففي دمشق، التي كانت نسبة النساء فيها 55 في المئة تقريبًا[145]، والتي شكّل المسلمون أغلبية سكانها بنسبة تصاعدية تفوق 80 في المئة، كان يوجد إقبال تدريجي على المدارس الحكومية الجديدة التي افتتحت عام 1879 بمعدّلٍ وسطيٍّ بلغ 350 طالبة سنويًّا خلال 5 سنوات، ثم ازداد هذا الإقبال بافتتاح المدرسة الرشدية التي شهدت كذلك ارتفاعًا متزايدًا في عدد الطالبات من 13 طالبة إلى 140 طالبة سنويًّا خلال 15 عامًا. وبذلك، بلغ عدد طالبات المدارس الحكومية في دمشق نحو 550 طالبة في مطلع القرن العشرين[146]. ومع إضافة عدد الدارسات في الكتاتيب الإسلامية التقليدية، يكون عدد الدارسات في مختلف مدارس دمشق عام 1900 نحو ألف طالبة[147].

135 الغزّي، مج 3، ص 459.

136 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.1224/67.

137 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.1227/95.

138 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق مديرية الأمور المحلّية والولايات في نظارة الداخلية، تصنيف: COA, DH.UMVM.40/34.

139 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.1227/51.

140 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.1235/27.

141 **سالنامهء نظارت معارف عموميه** (دار الخلافة العلية: مطبعة العصر، 1319هـ/ 1901م)، ص 128.

142 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم مكتوبي نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.MKT.1227/95.

143 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق أصول الملفات للإرادات ووثائق مجلس شورى الدولة، تصنيف: COA, İ.DUİT.69/3; & COA, ŞD.1321/29.

144 Çiçek, pp. 308-311.

145 مقارنة بين عدّة حوليات لولاية سورية بين عامَي 1879 و1900.

146 مقارنة بين عدّة حوليات لولاية سورية بين عامَي 1879 و1900 أيضًا.

147 **سالنامهء ولايت سوريه** (شام شريف: مطبعة الولاية، 1318هـ/ 1900م)، ص 364.

وباعتبار أنّ التعليم الحكومي كان مقصدًا للسكان المسلمين من دون بقية الطوائف، فإنّ نسبة البنات المسلمات الدارسات في دمشق عام 1900[148] قُدّرت بنحو 20-25 في المئة من إجمالي البنات في السنّ التعليمي[149]؛ أكثر من نصفهنّ يدرسن في المدارس الحكومية[150].

غير أنّ الإقبال على التعليم الحكومي بدأ يتراجع في الفترة اللاحقة. وقد تزامن ذلك - والتزامن لا يعني السببية - مع سياسات حزب الاتحاد والترقي في تتريك التعليم، وترجيح الأهالي للمدارس الأهلية. والسبب الأخير جعل الدولة تعمل فعلًا على دمج العديد من المدارس الرسمية وإلغاء مدارس أخرى بسبب ضعف الإقبال عليها[151].

أما مدارس الطوائف والمدارس الأجنبية، فقد ظلّت في الريادة منذ ستينيات القرن التاسع عشر؛ إذ بلغ عدد الطالبات في مختلف المدارس المسيحية نحو 1100 طالبة بحلول عام 1880[152]، أي ضِعف عدد الطالبات الدارسات في المدارس الرسمية والكتاتيب الإسلامية الصغيرة حينئذ[153]، وهي نسبة عالية جدًّا إذا ما قورنت بعدد المسيحيين في دمشق. ولعلّ أبرز المؤسسات كانت مدرسة الراهبات العازارية التي بلغ عدد طالباتها 550 طالبة عام 1883[154].

من جانب آخر، أظهرت مدارس البروتستانت البريطانية، المؤسسة في دمشق عام 1868[155]، والتي كان بإدارة المديرة والمعلّمة الإنكليزية (Augusta Mentor Mrs. Mott) المعروفة في المراجع بـ "مدام موط"، نموذجًا فريدًا من ناحية الإدارة والاستقطاب. فمع تجاوز عدد الطالبات 250 طالبة في دمشق[156]، خصَّصت مدام موط مدرسةً من أصل أربع مدارس لتعليم العمياوات، وتمكّنت من توطيد علاقات مهمة على مستوى رجال الدولة، كانت نتيجتها حضور الأعيان والضباط المستمرّ لامتحانات المدرسة. وعلى مستوى المجتمع، استقطبت المدرسة بنات أهمّ العائلات اليهودية الدمشقية، فشكّلن نسبة النصف تقريبًا من إجمالي الطالبات[157].

وعلى الرغم من شحّ الإحصاءات الرسمية، ثم انعدامها في أواخر القرن التاسع عشر، يمكن ملاحظة الفرق الكبير بين عدد المدارس الرسمية والكتاتيب وبين عدد مدارس الطوائف والإرساليات إذا ما قورنت بنسب السكان. فحين ضمّت دمشق وريفها نحو 50 مؤسسة تعليمية ابتدائية رسمية وأهلية، و45 مدرسة شرعية، بلغ عدد مدارس الطوائف 77 مدرسة، منها مدرستان ثانويّتان وثلاث مدارس رشدية، بينما بلغ عدد المدارس الأجنبية 46 مدرسة؛ من بينها أربع مدارس ثانوية ومدرسة رشدية[158].

148 باعتبار أنّ البنات يدخلن المدرسة في سنّ الخامسة أو السادسة، ويتخرّجن من الرشدية بعد دراسة ستّ أو سبع سنوات، فإنّ حساب نسبة البنات في دمشق ضمن السنّ التعليمي الابتدائي والإعدادي عام 1900، يقتضي اعتماد عدد الولادات المسجّلة خلال الشريحة الزمنية الممتدة بين عامَي 1889 و1895، وهو يبلغ 4500 نسمة. وتبقى هذه نسبة تقريبية، إذ أُهملت فيها النفوس غير المسجّلة رسميًا، والطالبات المتأخّرات في التسجيل أو التخرّج.

149 لعدم توافر أيّ معلومات عن البنات اللواتي تلقّين تعليمًا خاصًّا في بيوتهنّ، وعن البنات المسلمات اللواتي درسن في مدارس الطوائف أو المدارس الأجنبية، أُهملت هذه النسب أيضًا.

150 **سالنامهء ولايت سوريه (1318هـ/ 1900م)**، ص 364.

151 أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني، وثائق قلم التدريسات الابتدائية في نظارة المعارف، تصنيف: COA, MF.İBT.394/53.

152 قساطلي، ص 118-119.

153 في عام 1880، بلغ عدد طالبات المدارس الحكومية 296 طالبة، إضافةً إلى نحو 250 فتاة كنّ يدرسن في الكتاتيب. ينظر: **سالنامهء ولايت سوريه (1297هـ/ 1880م)**، ص 132-133.

154 **سالنامهء ولايت سوريه (1300هـ/ 1883م)**، ص 154.

155 Charles Issawi, *The Fertile Crescent* 1800-1914*: A Documentary Economic History* (New York: Oxford Uni. Press, 1988), p. 68.

156 **سالنامهء ولايت سوريه (1300هـ/ 1883م)**، ص 155.

157 William & Robert Smeal, *The British Friend*, vol. XXVI, no. XL (11th Month, 2d, 1868), p. 274.

158 **سالنامهء ولايت سوريه** (شام شريف: مطبعة الولاية، 1312هـ/ 1895م)، ص 246-247.

كانت توجد وجوه اختلاف بسيطة في حلب مقارنةً بدمشق التي فاقت الأولى من ناحية عدد السكان بنسبة 20 في المئة في مطلع القرن العشرين[159]، وتأخّرت عنها بنسب بسيطة في المجال التعليمي للذكور بشقّيه الرسمي والأهلي[160]. فتأخُّر افتتاح مدارس رسمية للبنات في حلب جعل مؤسسات الطوائف المسيحية والإرساليات في تفوّق نسبي على المؤسسات الإسلامية المتمثّلة بالكتاتيب التقليدية؛ إذ إنّ تلك المؤسسات كانت أقدم عهدًا. فقد أسّست بعثة الراهبات اليسوعيات أولى مدارسها للبنات في حلب عام 1855[161]، بينما تأسست مدرسة الأرمن الكاثوليك للذكور عام 1836[162]، ومدرسة البروتستانت الإعدادية للبنات عام 1876[163]. وبحلول عام 1890، كان يهود حلب قد أسّسوا فعلًا مدرسة البنات الموسوية[164]. وهكذا، كانت مدينة حلب تضمّ تسع مدارس بنات حديثة لمختلف الطوائف المسيحية واليهودية مطلع القرن العشرين[165]، وذلك من دون التطرّق إلى الكتاتيب التقليدية للطوائف[166].

وحتى بعد افتتاح المدارس الرسمية للبنات، ظلّت الكتاتيب تستقطب العدد الأكبر من الطالبات المسلمات، حتى عام 1908 على الأقل؛ إذ بلغ عدد الدارسات في الكتاتيب الثلاثة والعشرين 700 طالبة[167]، بينما لم يتجاوز عدد الدارسات في المدارس الرسمية أكثر من 160 طالبة[168]. ولكن كما تبيّن من خلال العرض التاريخي، ستتحسّن أحوال التعليم الرسمي للبنات في حلب قُبيل الحرب العالمية وأثناءها، مع افتتاح عدة مدارس ابتدائية جديدة للبنات، وأخيرًا مع افتتاح دار للمعلمات.

أما في حمص، فقد كانت المدارس الإنجيلية والأرثوذكسية واليسوعية في تنافس مستمرّ لتحسين جودة تعليم البنات واستقطاب أعداد أكبر؛ إذ ضمّت المدرسة الإنجيلية في مطلع القرن العشرين 100 طالبة تقريبًا، وضمّت المدرسة الأرثوذكسية نحو 300 طالبة[169]. وبحلول عام 1914، ظلّ عدد طالبات المدارس الإنجيلية هو نفسه، بينما ازداد عدد طالبات المدارس الأرثوذكسية ليتجاوز 850 طالبة؛ متوزّعات بين مدرسة الإناث الأرثوذكسية المركزية، ومدرسة الحميدية، والميتم الأرثوذكسي. أما المدارس اليسوعية فقد ضمّت 236 طالبة؛ متوزّعات بين مدرسة الراهبات، ومدرسة مار بولس في حي باب السباع، ومدرسة قلب يسوع في حي الحميدية[170].

159 **سالنامهء ولايت حلب (1321هـ /1903م)**، ص 225.

160 على مستوى الولايات، بلغ عدد الطلاب في ولاية حلب 42 ألفًا، بنسبة 5 في المئة من إجمالي السكان، مقابل 22 ألفًا في ولاية سورية، بنسبة 4 في المئة من إجمالي السكان، في نهاية العهد الحميدي. وعلى مستوى مدينتَي حلب ودمشق، وعلى الرغم من أنّ عدد المدارس الشرعية في دمشق كان ضعف عددها في حلب، فإنّ أغلبها بدا معطلًا، في حين شهدت مدارس حلب إقبالًا أعلى كثيرًا. وعلى صعيد مدارس الطوائف والإرساليات، تفوّقت مؤسسات حلب عددًا وإقبالًا. غير أنّ دمشق ظلّت متقدّمة على حلب على نحو ملحوظ في مجال التعليم الرسمي للبنات حتى نهاية العهد الحميدي (1909). ينظر: **سالنامهء نظارت معارف عموميه، 1901 و1903**.

161 كامل الغزّي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، مج 2، ط 2 (حلب: دار القلم، 1998)، ص 398.

162 **سالنامهء نظارت معارف عموميه (1321هـ/ 1903م)**، ص 466.

163 United States. Department of State, *Guide to Technical Assistance Services of United States Voluntary Agencies Abroad* 1949-1951 (Washington: U.S. Govt. Print. Off, 1952), p. 64.

164 **سالنامهء نظارت معارف عموميه (1321هـ/ 1903م)**، ص 466.

165 المرجع نفسه، ص 467.

166 أحصت حولية ولاية حلب، عام 1889، 39 مدرسة وكتّابًا ابتدائيًا للطوائف المسيحية واليهودية في مدينة حلب، ضمّت 2280 من الطلاب والطالبات. ينظر: المرجع نفسه، ص 188.

167 **سالنامهء ولايت حلب** (حلب: مطبعة الولاية، 1326هـ/ 1908م)، ص 139.

168 **المرجع نفسه**، ص 137.

169 **سالنامهء نظارت معارف عموميه (1321هـ/ 1903م)**، ص 537-538.

170 داوود قسطنطين الخوري، "المعارف في حمص-2"، **حمص**، العدد 15، 1914/4/4، ص 1.

في حين أنّ مدرسة البنات الرسمية لم تضمّ أكثر من 60 طالبة مطلع القرن العشرين[171]، ثم ارتفع هذا العدد ليصبح 200 طالبة عام 1914[172]. لكنّ ذلك لم يجعلها في مستوى المدارس الأهلية المسيحية ذات المستويين الابتدائي والرشدية؛ إذ إنّها اقتصرت على قسم ابتدائي[173].

خاتمة

لقد رأينا في متن هذه الدراسة أنّ نشأة تعليم البنات في سورية كان مع قدوم الإرساليات الأجنبية التي أدخلت مفهوم التعليم الحديث للبنات. وظهر أن توجّه الدولة العثمانية إلى ترسيخ التعليم الرسمي للبنات بدا بمنزلة ردّة فعلٍ على الحداثة الأوروبية، بل إنها أيضًا ظهرت بوصفها محاولة لـ "عثمنة" هذه الحداثة، إن صحّ التعبير، عن طريق استحداث المدارس الرسمية ورسم إطار عام للمناهج. ولكن يبقى السؤال: هل تمكّنت تلك المدارس الرسمية من تحقيق أهدافها حقًّا؟ إن كان الهدف هو تعليم الفتاة العثمانية، فقد نجحت الدولة فيه نسبيًّا، نظرًا إلى ارتفاع نسبة الطالبات والدارسات مع مرور السنوات. أما إن كان الهدف إعدادَ جيل مرتبط بالدولة العثمانية وثقافتها وتأهيله، فهي لم تنجح فيه. ولعلّ عزوف المجتمع عن مدارس البنات الحكومية بعد عام 1909 لم يكن ردّة فعلٍ تجاه تعليم الفتاة، بل ردّة فعلٍ تجاه الدولة وسياساتها الجديدة مع قدوم حزب الاتحاد والترقي إلى السلطة.

أما بالنسبة إلى مدارس الطوائف والإرساليات، فقد حافظت على مؤسساتها وحقّقت الاستدامة فيها، بل إنها تمكّنت من استقطاب المسلمين واليهود وليس المسيحيين فحسب، ونجحت في تخريج أسماء لامعة في التاريخ السوري لاحقًا، بخلاف المدارس الرسمية التي لم تنجح في أيّ أمر من هذين الأمرين.

ومع ذلك، يُحسب للمؤسسات الرسمية أنها كانت تجربة أولى استطاعت من خلالها العديد من النساء التعلّم والدراسة، وأحيانًا العمل، وأنها أرست قواعد وأسسًا لمؤسسات تعليمية ما زالت مستمرّة إلى يومنا هذا.

أما دور المجتمع، فقد ظهر جليًّا في تقبّل فكرة تعليم الفتاة، حتى لو كان ذلك محدودًا في البداية. ولم تظهر محاولات جدّية لعرقلة فكرة التعليم بذاتها كما حصل في ولايات أخرى. غير أنّ الدور الأهم للمجتمع الأهلي تمثّل في أخذ المبادرة حين قصّرت الدولة أو عجزت عن تأمين الوسط التعليمي المناسب، ولم يكن هذا الدور الأهلي خارجًا عن إطار الهيكلية الرسمية.

وتبقى قضية تعليم البنات في سورية، وتأثيرها في المجتمع، ودور المجتمع فيها، خصوصًا في العهود اللاحقة، مجالًا واسعًا للبحث من أجل فهم المجتمع السوري فهمًا أفضل. وربما يجري ذلك في بحوث لاحقة أكثر تفصيلًا واستفاضة، بحيث يجري التطرّق إلى مؤشرات أكثر عددًا وتنوّعًا، والتركيز على ظواهر معيّنة نشأت في أثناء مسيرة تطوّر المؤسسات التعليمية لم يتح المجال لذكرها والبحث فيها في هذه الدراسة.

171 **سالنامهء ولايت سوريه (1312هـ/ 1895م)**، ص 246.

172 داوود قسطنطين الخوري، "المعارف في حمص"، **حمص**، العدد 14، 1914/3/28، ص 1.

173 المرجع نفسه.

المراجع

العربية

أباظة، نزار. **مدارس دمشق ومعاهدها خلال القرن الرابع عشر الهجري: دراسة في مؤسسات التعليم الأهلي**. دمشق: دار الفكر، 2020.

الإرث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي. جمعه وحقّقه جودة الركابي وجميل سلطان. دمشق: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، 1963.

بيات، فاضل. **المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني: دراسة تاريخية إحصائية في ضوء الوثائق العثمانية**. إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا)، 2013.

الدباغ، عائشة. **الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين**. بيروت: دار الفكر، 1972.

الزهراوي، عبد الحميد. **خديجة أم المؤمنين**. القاهرة: مطبعة المنار، 1910.

الزهراوي، نعيم سليم. **الكتاتيب والمدارس في حمص**. حمص: دار السلامة للنشر، [د. ت.].

صافي، رضا. **على جناح الذكرى**. دمشق: وزارة الثقافة، 1982.

الطبّاخ، محمد راغب. **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**. حلب: دار القلم العربي، 1988.

عبّود، رزق الله نعمة الله. **تذكار اليوبيل لسيادة الحبر الجليل اثناسيوس عطالله ميتروبوليت حمص وتوابعها للروم الأرثوذكس**. حمص: مطبعة حمص، 1911م.

عينتابي، محمد فؤاد ونجوى عثمان. **حلب في مئة عام 1850-1950**. 3 ج. حلب: منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، 1993.

العلّاف، أحمد حلمي. **دمشق في مطلع القرن العشرين**. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1976.

الغزّي، كامل. **نهر الذهب في تاريخ حلب**. حلب: دار القلم العربي، 1991.

_____. **نهر الذهب في تاريخ حلب**. ط 2. حلب: دار القلم العربي، 1998.

القالش، حسّان. **سياسة علماء دمشق: أسئلة الإصلاح والهوية والعروبة (1516-1916)**. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2024.

قساطلي، نعمان. **الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء**. سلسلة التواريخ والرحلات 4. بيروت: دار الرائد العربي، 1982.

ناصر، رفّول. **تاريخ كلية حمص الوطنية الإنجيلية**. حمص: المطبعة الجديدة، 1928.

العثمانية

سالنامهء دولت عليه عثمانيه [حولية الدولة العلية العثمانية]. در سعادت: المطبعة العامرة، (1284هـ/ 1867م)، (1285هـ/ 1868م).

سالنامهء نظارت معارف عموميه [حولية نظارة المعارف العمومية]. دار الخلافة العلية: مطبعة العصر، (1316هـ/ 1899م)، (1319هـ/ 1901)، (1321هـ/ 1903م).

سالنامهء ولايت حلب [حولية ولاية حلب]. حلب: مطبعة الولاية (1302هـ/ 1884-1885م)، (1308هـ/ 1890م)، (1321هـ/ 1903م)، (1326هـ/ 1908م).

سالنامهء ولايت سوريه [حولية ولاية سورية]. شام شريف: مطبعة الولاية (1288هـ/ 1871م)، (1297هـ/ 1880م)، (1298هـ/ 1881م)، (1299هـ/ 1882م)، (1300هـ/ 1883م)، (1302هـ/ 1885م)، (1312هـ/ 1895م)، (1318هـ/ 1900م).

مدحت، علي حيدر. **تبصرهء عبرت**. إستانبول: مطبعة هلال، 1909.

وثائق أرشيف رئاسة الجمهورية العثماني

- A.DVN.MKL = Sadaret - Divan Kalemi - Mukavelenameler
- AE.SMHD.I = Ali Emiri, Mahmud I
- BEO. = Bâb-ı Âli Evrâk Odası
- C.MF. = Cevdet Maarif
- COA = Cumhurbaşkanlığı Osmanlı Arşivi
- DH.UMVM. = Dahiliye Nezâreti Umûr-ı Mahalliye ve Vilâyât Müdürlüğü
- İ.DH. = İrade Dahiliye
- İ.DUİT. = İrade Dosya Usulü
- İ.MVL.= İrade Meclis-i Vâlâ
- MF.İBT. = Maarif Nezâreti Tedrisat-ı İbtidaiyye Kalemi
- MF.MKT. = Maarif Nezâreti Mektubi Kalemi
- NFS.d. = Nüfus Defteri
- ŞD. = Şura-yı Devlet A.DVN.MKL.80/14
- AE.SMHD.I.93/6410
- BEO.4027/301983
- C.MF.35/1721
- DH.UMVM.40/34
- DH.UMVM.67/52
- DH.UMVM.83/10
- İ.DH.970/76613
- İ.DUİT.69/3
- İ.MVL.582/26155
- MF.İBT.289/1
- MF.İBT.394/53
- MF.İBT.50.26
- MF.İBT.487/61
- MF.İBT.457/14
- MF.MKT.1027/13
- MF.MKT.1224/67
- MF.MKT.1235/27
- MF.MKT.1227/51
- MF.MKT.1227/95
- MF.MKT.1228/83
- MF.MKT.143/60
- MF.MKT.568/5
- MF.MKT.153/144
- MF.MKT.167/106
- MF.MKT.181/39
- MF.MKT.366/37.1
- MF.MKT.535/9
- MF.MKT.622/40
- MF.MKT.889/24
- MF.MKT.922/71.13
- MF.MKT.922/71.17
- MF.MKT.922/71.18
- MF.MKT.922.71/2
- MF.MKT.922/71.3
- NFS.d.3750/15
- ŞD.1321/29

الأجنبية

Abdülhamid II and His Legacy: Studies in Honour of F. A. K. Yasamee, Tufan Buzpınar & Gökhan Çetinsaya (eds.). Istanbul: The ISIS Press, 2019.

Avcı, Yasemin. "Osmanlı Devleti'nde Tanzimat Dönemi'nde 'Otoriter Modernleşme' ve Kadının Özgürleşmesi Meselesi." *Osmanlı Tarihi Araştırma ve Uygulamalı Merkezi Dergisi OTAM*. vol. 21, no. 21, 2015.

Smeal, William & Robert Smeal. *The British Friend*, vol. XXVI, no. XL (November 2, 1868).

Aydınlık, Badegül Eren & Seyfi Kenan. "Between men, time and the state: education of girls during the Late Ottoman Empire (1859-1908)." *Paedagogica Historica*. vol. 57, no. 4 (2019).

Beydilli, Kemal. "Nizam-ı Cedid." *TDV İslâm Ansiklopedisi*. İstanbul: TDV İslâm Araştırmaları Merkezi, 2007.

Çiçek, M. Talha. *Cemal Paşa Suriye'de: Birinci Dünya Savaşı Yılları*. Istanbul: Kronik Kitap, 2020.

Deringil, Selim. *The Well-Protected Domains: Ideology and the Legitimation of Power in the Ottoman Empire,* 1876-1909. London: I.B. Tauris, 1998.

Erdoğdu, Teyfur. "Maarif-i Umumiyye Nezareti Teşkilatı-ı." *Ankara Üniversitesi Siyasal Bilgiler Fakültesi Dergisi*. vol. 1, no. 51 (1996).

Issawi, Charles. *The Fertile Crescent* 1800-1914*: A Documentary Economic History*. New York: Oxford University Press, 1988.

Kaçar, Mustafa. "Tersâne Hendesehânesi'nden Bahriye Mektebi'ne Mühendishâne-İ Bahrî-İ Hümâyûn." *Osmanlı Bilimi Araştırmaları*. vol. 9, no.1-2 (2007-2008).

Malkoç, Selda & Duygu Vefikuluçay Yilmaz. "Osmanli Dönemi Kadin Dergileri." *Uluslararası Sosyal Araştırmalar Dergisi*. vol.12, no. 63 (2019).

Ortaylı, İlber. *Osmanlı Toplumunda Aile*. İstanbul: Timaş Yayınları, 2013.

Sassmannshausen, Christian. "Educated with Distinction: Educational Decisions and Girls' Schooling in Late Ottoman Syria." *Journal of the Economic and Social History of the Orient*. vol. 62, no. 1 (December 2019).

Somel, Selçuk Akşin. "Osmanlı Modernleşme Döneminde Kız Eğitimi." *Kebikeç*. no. 10, 2000.

Sarıaslan, Naz. *Osmanli Modernleşmesinde Kiz Çocuklarinin Eğitime Katilma Sürecine ve Kiz Sanayi Mekteplerine Kisa Bir Bakiş*. Ankara: Hacettepe Üniversitesi Atatürk İlkeleri ve İnkılap Tarihi Enistüsü, 2023.

Temel, Ebru-Davulcu Mustafa. "Osmanlı Devleti'nde Yayınlanan İlk Kadın İlavesi Terakki-i Muhadderat'taki Kadın Mektuplarının Tahlili." *Gazi Üniversitesi Letişim Kuram ve Araştırma Dergisi*. no. 44 (2017).

United States. Department of State. *Guide to Technical assistance services of United States Voluntary Agencies Abroad* 1949-1951. Washington: U.S. Govt. Print. Off, 1952.